علمني موسى

﴿ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ﴾

سلمان العودة

وسم
للنشر والتوزيع

علمني موسى

﴿ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ﴾

سلمان العودة

وسم
للمعرفة والثقافة

الكتاب	علّمني موسَى
المؤلف	سلمان بن فهد العودة
التصميم والإخراج	مركز بنان للتصميم / 0795638442
المراجعة والتدقيق	مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع
الإشراف العام	م. حسن صالح

Hz. musa bana öğretiyor

ISBN: 978-605-74686-8-0

جميع الحقوق محفوظة

All Rights Reserved ©

يحظر نسخ و/أو طبع و/أو تصوير و/أو ترجمة و/أو إعادة صف وإخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه و/أو تسجيله على الأشرطة و/أو وسائل تحميل الصوت أو الصورة و/أو الأقراص المدمجة أو المغنطة و/أو إدخاله على الكمبيوتر أو قواعد البيانات و/أو استغلاله بأي شكل من الأشكال إلاّ بموافقة خطيّة من الناشر.

No part of this publication may be reproduced or distributed in any form or by any means, or stored in a database or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى

2022م - 1443هـ

وسم للمعرفة والثقافة ـ اسطنبول ـ تركيا

Fatih, Aksemseltin mahallesi, Haliciar Cd, No 18, Istanbul

+90 551 163 82 25 wasmbookstore.com

wasm.bookstore@gmail.com

WasmBookstore Wasm_Bookstore

مقدمة

رسلُ الله هم صفوة الخلق، اصطفاهم الله بعلمه وحكمته، وفضّلهم على كثير ممن خلق تفضيلا: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾، و﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾.

وكما اصطفى الله الرسل على الناس، فقد اصطفى أولي العزم على الرسل وفضّلهم على غيرهم : ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾.

وأولو العزم من الرسل هم الخمسة الأوائل في ترتيب البشرية مكانةً وشرفًا، وفضلًا وجهادًا ومصابرة وصبرًا، ولذا خصّوا بالذكر والفضل: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾، و﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾.

وجعلهم الله الأسوة والقدوة لنبيه ولأمته من بعده: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾.

ومن أكثر قصص أولي العزم ذكرًا وتكرارًا في القرآن قصة نبي الله موسى -عليه السلام- حتى كاد القرآن أن يكون عن موسى وبني إسرائيل.

وتكرار القصة في القرآن له دلالات، منها:

- أهمية القصة وشدة احتياج البشرية لها، فكأن في تكرارها تأكيدًا لذلك.
- كثرة العبر والدروس فيها، ولذا يتكرر ذكرها من زوايا متعددة، مختصرة ومفصلة، وثمة معان وعبر تظهر منها كل مرة، وهو ما نلاحظه في قصة موسى عليه السلام.

وفي قصة موسى تشابه مع حياة نبينا محمد ﷺ ودعوته، ومن أوضح أوجه التشابه بين الأخوين موسى ومحمد عليهما السلام أن صبرهما وجهادهما كان مع أعدائهما ومع أتباعهما.

فجاهد موسى -عليه السلام- فرعون وقومه، وجاهد محمد ﷺ ملأ قريش وصناديدها.

ثم كابد موسى بني إسرائيل أشد المكابدة، وصبر محمد ﷺ على أتباعه يحتمل جهل الجاهل، وجفاء الجافي، ونفاق المنافق ويسعهم كلهم بخلقه العظيم.

ولذا قال موسى لمحمد ليلة الإسراء: «**إِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَكَ،**

وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ»[1]، وكان ﷺ يتعزى ويتأسى بصبر موسى، فلما أوذي باتهامه بعدم العدل في القسمة قال: «**قَدْ أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**»[2].

وكما تكرر ذكر موسى في القرآن فقد تكرر ذكره في حديث النبي ﷺ، فذكر ﷺ أخباره وقصصه كثيرًا، وكأن ثمة علاقة خاصة بين محمد ﷺ وأخيه موسى -عليه السلام- بحيث ذكره وفصّل من أحواله وخبره بما لم يذكر مثله عن غيره.

فقد رآه ليلة أسري به يصلي في قبره، ولقيه في بيت المقدس مع الأنبياء حين صلى بهم.

ولقيه في السماء السادسة حين عرج به، وتردد بينه وبين ربه في شأن عدد الصلوات المفروضة، وموسى يناشده في كل مرة أن يستوضع ربه في عددها شفقة على أمة محمد ﷺ ألا تطيق ذلك، ويخبره عن معاناته مع بني إسرائيل، وضعفهم عن كثير مما كلفوا به، وحدَّث نبينا عن كثير من أخباره وأحداث حياته.

ونهى ﷺ أمته عن تفضيله على موسى، فقال: «**لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأُصْعَقُ مَعَهُمْ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ العَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صُعِقَ، فَأَفَاقَ قَبْلِي أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللَّهُ**»[3].

---

(1) «صحيح ابن خزيمة» (301).

(2) «سنن الترمذي» (3896).

(3) «صحيح البخاري» (2411).

ووصفه ﷺ لأمته حتى كأنما نراه رأي العين، فقال: «**مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، رَجُلٌ آدَمُ طُوَالٌ جَعْدٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ**»[1].

وهذا الحضور الكثيف لأخبار موسى -عليه السلام- في كتاب الله عز وجل، وحديث رسول الله ﷺ يلفت الأنظار إلى أهمية قراءة سيرته وأحداث حياته، ودعوته وصبره ومصابرته.

وقد سبق أن ألقى فضيلة الشيخ سلمان العودة حفظه الله برنامجًا بعنوان «**علمني موسى**» عرض فيه قصة موسى وبني إسرائيل عرضًا جديدًا استثار فيه كثيرًا من المعاني، واستخرج كثيرًا من الدروس والعبر، ووقف واستوقف على مشاهد ودلالات في هذه القصة لم يُسبق إلى الوقوف عليها بهذا العرض وتلك الطريقة.

ولأهمية تلك الحلقات فقد تم تحريرها بما يناسب لغة الكتاب المقروء، وجمعها في هذا الكتاب بالعنوان ذاته الذي اختاره الشيخ لبرنامجه، وذلك تعميمًا للفائدة، وخدمة ونشرًا لتراث الشيخ وأعماله العلمية.

والله نسأل أن يبارك في علم الشيخ وينفع به، ويمَّده بمددٍ من عنده حتى يكمل ما كان عزم عليه من الوقوف مع قصص أولي العزم من الرسل على هذه الطريقة من التفكر والاعتبار.

والحمد لله رب العالمين.

عبد الوهاب بن ناصر الطريري

---

(1) «صحيح مسلم» (165).

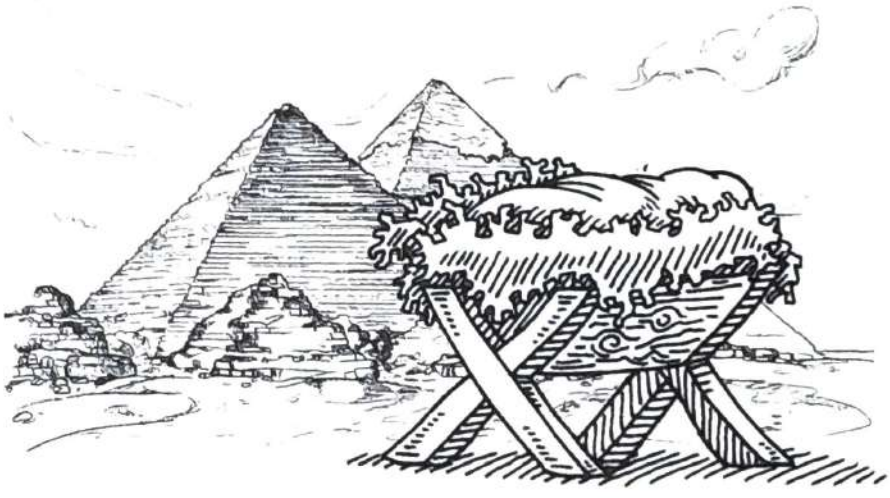

تابوتٌ في مَمْفِيس

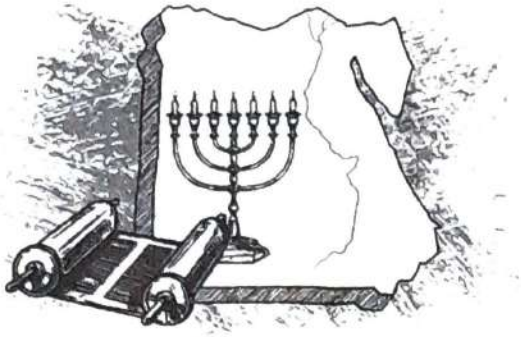

إسرائيل في مصر

إسرائيل هو يعقوب- عليه السلام -، ويُسمَّى بنوه بالإسرائيليين نسبة إليه، كما يسمون بالعَبرانيين نسبة إلى لغتهم، ويسمون باليهود نسبة إلى يهوذا.

الدخول الأول:

بداية بني إسرائيل في مصر كانت عندما حكمها يوسف -عليه السلام- مدة، وكان على خزائن الأرض، وقال لإخوته: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. فجاء يعقوب -عليه السلام- ومعه قريبٌ من سبعين من أبنائه وأحفاده وإخوانه وقرابته، ورفع يوسف أبويه على العرش، كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾، فهم في بدايتهم في مصر كانوا على علاقة بالحكم المصري.

وخيَّرهم الملك في المكان الذي يحبون العيش فيه، فاختاروا العيش في حيٍّ رعويٍّ بعيد عن حاضرة القِبْط؛ وربما كان السبب في اختيارهم لهذه العزلة أحد أمرين:

- أنَّ ثقافتهم كانت مختلفة، فقد كانوا أصحاب إيمان، وتوحيد، وعقائد، وأنبياء، ورُسُل، ولهم أخلاقياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية، ولهم عاداتهم في الأكل والشرب والملابس وغيرها؛ ولذلك فضّلوا أن يعيشوا في حيٍّ منعزل.
- وربما كان السبب أنَّ القبط وهم سكانِ مصر كانوا لا يحبون الاختلاط بهم، وينظرون إليهم على أنهم فئة أقل منهم، فكان هناك نوع من الاستقلال إلى حد ما مع وجود قدر من الاختلاط.

وبسبب هذه الخُلطة مع القبط ومعتقداتهم الوثنية آنذاك، خاف يعقوب على أولاده من بعده أن يتأثروا بعبادات الأصنام من حولهم، وبهذه البيئة الشركية، فلما حضرته الوفاة اجتمع بهم وأقر توحيد الله في نفوسهم، فسألهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾، ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

وقد يُزعم أن التوحيد الذي أخذه موسى أو غيره كان من الملك الفرعوني «**إخناتون**» الذي كان موحِّدًا، وهذا خطأ؛ إذ لم يكن «**إخناتون**» موحِّدًا بل كان يعبد صنمًا واحدًا، ولا يعبد أصنامًا متعددة، كان يعبد قرص الشمس، وكلمة «**إخناتون**» باللغة الهيروغليفية المصرية القديمة معناها «الجميل مع قرص الشمس»، فالذين يقولون إن التوحيد الذي أخذه موسى أو غيره هو من «**إخناتون**» يتجاهلون هذه الحقيقة، وينسون أن هؤلاء أنبياء، وأبناء أنبياء، وكانوا موحِّدين.

ميثاق بني إسرائيل:

قد أخذ الله -سبحانه وتعالى- ميثاقًا على بني إسرائيل بعدة أمور:

أولًا: العقيدة والإيمان: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

ثانيًا: البر بالوالدين: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

ثالثًا: قيم الأخلاق والإحسان إلى الناس بالقول، حتى قال ابن عباس: **لو قال لي فرعون: بارك اللهُ فِيْكَ. قلتُ: وَفِيكَ**[1]، ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾.

رابعًا: قيم الصلاة والزكاة والعبادات، ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

خامسًا: الجهاد في قوله تعالى: ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾، الجهاد في سبيل الله، وفي سبيل نصرة الرسل، وفي سبيل الإيمان بهم.

ولكنهم بدَّلوا وغيَّروا وتأثروا بالبيئة المصرية ومعتقداتها.

خطابٌ واحدٌ لأجيالٍ متعاقبة:

وقد خاطب القرآن اليهود في سورة البقرة، وغيرها خطابًا واحدًا رغم اختلاف أجيالهم؛ فكان يعاتب ويوبِّخ اليهود الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ على أفعال فعلها آباؤهم وأجدادهم السابقون: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾، ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ﴾، فالله - سبحانه وتعالى- يُعاتب الأبناء على أفعالٍ وأخطاءٍ ارتكبها الآباء والأجداد.

---

(1) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (1113)، وسنده صحيح. ينظر: «مجمع الزوائد» (182/8)، و«السلسلة الصحيحة» (704).

وهذا يدل على أن الجماعة الإسرائيلية لديها ثقافة موحَّدة لا تكاد تتغير على مرِّ الأجيال، مثلهم في ذلك من بعض الوجوه الغَجَر الذين لديهم ثقافة موحَّدة رغم اختلاف البلدان التي يعيشون فيها، فسواء وجدتهم في تركيا، أو أوروبا، أو رأيتهم في البلاد العربية، أو الهند، أو روسيا، تجد الطباع واحدة، لهم أسرارهم، وطبيعة عيشهم، ونمط بيوتهم، حتى الثقافة واحدة مِن: ادّعاء معرفة الغيوب، والكلام في المستقبل، ونمط الشخصية، والتزاوج، فهناك ثقافة يحافظ عليها هؤلاء الغَجَر.

وكذلك بنو إسرائيل، يحافظون على نمطٍ ثقافيٍّ واحد لا يكاد يتغير من زمان إلى آخر، ولا من مكان إلى آخر؛ ولذلك عاتب الله الأبناء على أفعال الآباء؛ لأنها يسهل أن تصدر من الأبناء أنفسهم، ويُقرّونها، ويتدارسونها، ويكررونها مع أنبياء زمانهم، فلذلك عاتبهم الله - سبحانه وتعالى- على ذلك، ورغم ذلك تأثروا بالعقائد الفرعونية، كما يظهر من قصة ذبح البقرة.

اذبحوا بقرةً:

وهذه القصة ليست موجودة في التوراة؛ فكأنهم يتواصون بكتمانها، بينما ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾، فموسى أمرهم بذبح بقرة، بسبب أن شابًّا قُتل عمُّه، وكان عمُّه تاجرًا، فخرج هذا الشاب يصيح ويتساءل عمَّن قتل عمَّه؟

واختلف الناس في القاتل، واتهم كلُّ واحد الآخر، فلما رجعوا لسيدنا موسى -عليه السلام- قال لهم: اذبحوا بقرةً. فبدؤوا يتهرّبون، ﴿قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾؛

أي أتسخر منا؟! وهذا عجيب منهم؛ لأنه نبي من عند الله ويخبرهم عن الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ﴾؟! ومع ذلك اتهموه بالسخرية فردَّ عليهم: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾؛ فالسخرية لا تليق بنبي، فتحايلوا وماطلوا في شكل تحرٍّ واستفصال، وقالوا: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾، ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ﴾، فيما يتعلق بسنِّها، ﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ﴾، فما فعلوا، بل رجعوا يسألون سؤالًا ثانيًا: ﴿ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ﴾؛ فقال لهم موسى: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾، فما نفَّذوا بل سألوا مرة ثالثة: ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾؛ ما عرفنا البقرة المطلوبة، ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ﴾، ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾ يعني لونها واحد، ﴿قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾، كأنه قبل ذلك لم يجئ بالحق.

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ﴾، ولما ذبحوها أمرهم بأن يأخذوا شيئًا من أعضاء هذه البقرة التي ذبحوها ويضربوا به الميت، ﴿ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، فأخذوا قطعة من البقرة وضربوا بها الميت فأُحْيِيَ بإذن الله، وقال: الذي قتلني هو فلان، أي: ابن أخيه الذي كان يصيح ويتساءل عمَّن قتل عمه؟ واتَّضح أنه هو القاتل؛ قتل عمَّه حتى يرث ماله، ثم حاول أن يُلصق الجريمة بطرف آخر.

والسؤال المثار هو: لماذا تهرَّب بنو إسرائيل من ذبح البقرة؟

الذي خطر في بالي -والله أعلم- أنَّ بني إسرائيل ورثوا نوعًا من تقديس البقر من خُلطة الفراعنة، فالفراعنة كان لهم عجل يعبدونه يسمى «أبيس»، فتوارث بنو إسرائيل عنهم عبادة العجل وأحبوها؛ لأنها عبادة فيها لعب ورقص وأغانٍ وألحان، وفيها معانٍ، وليست عبادة ساذجة أو بسيطة أو شكلية، بل فيها طقوس مغرية بالنسبة لهم، ومناسبة لشخصياتهم، فكانوا متعلّقين بعبادة العِجْل، ولذلك لما صنع السَّامري لهم العِجل سرعان ما عبدوه، وبمجرد خروجهم من البحر، ﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾، وهم قبائل من العرب يعبدون بقرًا، فقالوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، فعبادة البقر والعجول راسخة في ثقافتهم؛ ولذلك لما قال لهم موسى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾، كان هذا تأديبًا لهم؛ لإزالة هذه الثقافة والعادة الموروثة، ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾، يعني: لم يذبحوها إلا بجهد جهيد.

كل هذا يدل على أن بني إسرائيل دخلوا مصر موحدين، أصحاب ميثاق، ثم تأثرت أجيالهم بالحياة الفرعونية، وببعض معتقداتها لما خالطوهم.

* * * * *

أنانيةُ شعبٍ

تعلَّمت من التأمل في قصة سيدنا موسى -عليه السلام-، أن بني إسرائيل ليسوا سواء، ولا يجب أن ننظر للآيات التي تتكلم عن بني إسرائيل على أنها عار لسائر القوم؛ فأجدادهم كانوا أتباع أنبياء، وفيهم مؤمنون كُثر، وفيهم حملة علم، وقادة، كما أن في المتأخرين الكثير من المتلوّمين والمتلونين والمتراجعين، ومن وصفهم الله سبحانه بما وصفهم.

ولمثل الصِّنف الآخر قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، ولاحظ الأجل الممتد إلى يوم القيامة، وهذا وعد قرآني أنه كلما نكلوا وغيّروا وبدّلوا وابتعدوا عن هدي الأنبياء، وهم كذلك اليوم، يبعث الله تعالى عليهم ﴿مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

الأنانية الدينية:

ومن أبرز الصفات التي ذكرها الله تعالى عنهم: الأنانية الدينية التي تظهر من قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾، وقولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾، هكذا كانوا يقولون، بروح الأنانية.

والخشوع والدموع قليلة في بني إسرائيل، وإن كان فيهم الأحبار والعبّاد والزهّاد، يقول ربنا -سبحانه وتعالى-: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

ويجب ألا ننظر إلى عيوب بني إسرائيل على أنها وصمة عار لأعدائنا وخصومنا فقط، بل المطلوب أن ننظر في أنفسنا، وماذا يوجد فينا من هذه الخصال والعيوب، فالله -سبحانه وتعالى- يقول لنا: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ﴾، وكان حذيفة -رضي الله عنه- يقول: «**نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل إنْ كانت لهم كلُّ مُرَّةٍ، ولكم كلُّ حُلوةٍ، كلا والله لتسلُكُنَّ طريقَهم قدْر الشِّراكِ**»[1].

ويجب أن نبتعد عن غرور التديُّن، فالعِبرة بالعمل: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.

ثقافة غلَّابة:

كانت ثقافة بني إسرائيل مصرية، وهم ليسوا مصريين من حيث الأصل لكن الثقافة المصرية غلبت عليهم، وهذه هي نقطة القوة في المجتمع المصري، قدرته على احتواء الآخرين، فالشعوب التي غزت مصر تذوب في المجتمع المصري، مثل الإنجليز الذين جاؤوا إلى مصر وخرجوا دون أن يبقى لهم أثر عند

(1) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (20/2)، وابن جرير في «تفسيره» (459/8)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (1143/4)، والحاكم في «المستدرك» (312/2)، وصححه.

المصريين غير قليل من التذوق، والتفنن في بعض العادات.

وكذلك الفاطميون حكموا مصر قرابة خمسمائة سنة، وكانوا أصحاب صفات سيئة وعقائد وانحرافات، وما بقي منهم عند المصريين إلا فوانيس رمضان وبعض المظاهر المماثلة، ولكن الأمور السيئة كلها ذهبت إلى غير رجعة.

ويتكلم الشعب المصري لهجته المصرية العادية، ولم يتكلم بلغة أي أمة من الأمم، بينما تجد شعوبًا إسلامية وعربية أخرى تأثرت بالمحتل فتكلمت لغته مثل الدول التي استعمرها الفرنسيون مثلا.

والشعب المصري شعب عاطفي، والعاطفية ليست نقصًا؛ بل هي عنصر قوة في أحيان كثيرة إذا أُحسن توظيفها، كما أنَّ الشعب المصري شعب لا يحب التطرف، ويحب الوسطية غالبًا، وهذه بوصلة توجِّه مسيرة الشعب المصري في حالات كثيرة، تمر عليه فترات يواجه قسوة أو ظلمًا، أو عداءً أو احتلالًا، أو طغيانًا أو فرعونية، ويعالج هذا بالنكتة، وقد تختفي النكتة أحيانًا عندما يصبح الإنسان محاسَبًا عليها، لكن في النهاية ينتصر الشعب المصري.

ومن الأشياء الطريفة أن العرب والمسلمين لما فتحوا مصر، فتحت لهم أحضانها، فأصبحت اللغة العربية هي لغة المصريين، وأصبح الإسلام هو دينهم، وأصبح محمد ﷺ هو حبيبهم، فحينما تذكر اسم محمد بين مجموعة مصرية حتى لو كانوا في مقهًى أو مطعم أو ملهى تجد الخشوع والتأثر، ومن الطرائف التي تُحكى أن شيوعيًّا جلس في مجلس وهو سكران مع مجموعة سكارى، فشتموا الرسول ﷺ والعياذ بالله، فقام هذا الشيوعي يصرخ فيهم، ويقول: ما بقي معنا

من إيماننا إلا محبتنا لله - سبحانه وتعالى - ومحبتنا للرسول ﷺ وأنتم الآن تطعنونا في أعز ما نملك!

كانت تلك الثقافة المصرية التي تأثر بها كثيرًا بنو إسرائيل الذين عاشوا بالقرب منهم.

أيقونة الماء:

وربما السر في ذلك الانفتاح المصري هو الماء، فالبحر بطبيعته يصنع بيئة مفتوحة قادرة على الاحتواء، وقد لفت نظري في قصة موسى تكرار الماء كثيرًا، فقد أمر الله تعالى أمه بقوله: ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾، وافتخر فرعون بأن الأنهار تجري من تحته، وغرق فرعون في الماء.

والسر أن طبيعة البيئة الجغرافية المصرية محاطة بالماء، فحولها البحر الأبيض المتوسط، والبحر الأحمر، وفيها نهر النيل، والترع المتفرعة منه.

ونهر النيل على الخصوص له التأثير الأكبر في مصر، فهو كما قال المؤرخ هيرودت: «**مصر هبة النيل**»، ويتمسك المصريون بالعيش بالقرب منه أو مما يتفرع عنه من الترع، وترتبط حياتهم أشد الارتباط به، والذي يسيء إلى النيل أو يحاول تعويقه فهو يحاول أن يصنع متاعب للشعب المصري كله في الحاضر وفي المستقبل، وقد عبَّر أحمد شوقي في قصيدة طويلة عن هذا النهر العظيم وتأثيره في مصر وأرضها وتاريخها، منها قوله:

أَتَتْ الدهورُ عليكَ، مَهْدُكَ مُتْرَعٌ ... وحِياضُكَ الشُّرْقُ الشهيَّةُ دُفَّقُ
تَسْقِي وتُطْعِمُ لا إناؤكَ ضائِقٌ ... بالواردين ولا خِوانُك يَنفُقُ
والماءُ تَسْكُبُه فيُسْبَكُ عَسْجَدًا ... والأَرضُ تُغْرِقها فيحيا المُغْرَقُ
تُعيي مَنابِعُك العقولَ ويستوي ... مُتخبِّطٌ في علمِها ومُحقِّقُ
أَخلَقْتَ راووقَ الدهورِ ولم تزلْ ... بكَ حَمْأَةٌ كالمسكِ لا تَتروَّقُ
حمراءُ في الأَحواضِ إلاّ أَنها ... بيضاءُ في عُنُقِ الثَّرَى تَتأَلَّقُ
يَتقبَّلُ الوادي الحياةَ كريمةً ... من راحَتَيْكَ عَمِيمةً تتدفَّقُ
متقلِّب الجنبيْن في نَعْمائِهِ ... يَعْرَى ويُصْبَغُ في نَداك فيُورِقُ
فيبيتُ خِصْبًا في ثَراه ونِعْمة ... ويعُمُّه ماءُ الحياةِ الموسِقُ
وإليك - بَعْدَ اللهِ - يَرجِعُ تحتَه ... ما جَفَّ أَو ما ماتَ أَو ما يَنْفُقُ[1]

بين عُمَر والنيل:

ومن الأشياء الطريفة التي تتعلق ببني إسرائيل وبموسى وبالنيل، أن عمر -رضي الله عنه- كان شبيهًا بموسى، فقد قال النبي ﷺ في قصة أسرى بدر: «**مَثَلُك يا عُمر مَثَلُ موسى**»[2]. فشخصية عمر تشبه شخصية موسى في قوته، وفي جرأته، وفي صبره، وفي غضبه للحق، وغضبه لله.

وفي وقت خلافته قيل له: إن نهر النيل قد تراجع، وإن من عادة المصريين في أزمنة الجاهلية أنهم يأتون بفتاة جميلة ويرمونها في هذا النهر فيندفع ماؤه، وكان هذا التقليد موروثًا عندهم زيّنته لهم الشياطين.

---

(1) «الشوقيات» (2/64-65).

(2) أخرجه أحمد (3632) من طريق أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود، وعند الترمذي (1714، 3084) طرف منه، وقال: «هذا حديث حسن، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه».

فما كان من عمر -رضي الله عنه- إلا أن كتب رسالة وأرسل بها إلى واليه، وقال: ارموها في نهر النيل. وقد كتب في هذه الرسالة: «**من عمر أمير المؤمنين عبد الله إلى نهر النيل، فإن كنت تجري بإرادتك فتوقَّف، وإن كنت تجري بأمر الله فاجرِ**». فرموها في النهر فانطلق ماؤه[1].

فابكِ عمـرًا إنْ كنتَ منصفَ عمروٍ إنَّ عمـــرًا لنيِّـــرٌ وضَّـــاءُ

جـادَ للمسلمـينَ بالنيـلِ والنيـــ ـــلُ لمـنْ يقتنيـهِ افْرِيقَـاءُ[2]

وعلى فرض صحة هذه الرواية فإننا نلاحظ أن سيدنا عمر جاراهم ليصرفهم عن عقيدتهم القديمة، وليؤكد لهم عقيدة أن نهر النيل لا يجري من قِبَل نفسه ولا بسبب رمي فتاة فيه، وأن هذا فعل لا يجوز، وفيه عدوان على إنسانية فتاة، والأمر مجرد وقت معين يجري فيه النهر ووقت قد يتراجع.

وهناك ملامح أخرى لشخصية مصر وطباع أهلها كتب عنها: العالم «**جمال حمدان**»، في كتابه ذي الأجزاء المتعددة «**شخصية مصر**»، ففي الأربعين صفحة الأولى من الكتاب حلَّل الشخصية المصرية، من حيث الولع بالعبارات الجميلة، والولع بالمناسبات، والأفراح، والأعياد. ومن قبله أيضًا ذكر ملامح من ذلك كل من المقريزي، والجبرتي، وغيرهم من العلماء الذين كتبوا عن تاريخ مصر، ويصفونها بالبساطة والعفوية، ولكنها في الوقت نفسه شخصية آسرة، وقادرة على احتواء الآخرين وعدم الذوبان فيهم.

---

(1) أخرجه ابن عبد الحكم في «فتوح مصر» (ص165-166)، وأبو الشيخ في «العظمة» (4/1424-1425) من طريق ابن لهيعة، عن قيس بن الحجاج، عمن حدثه.

(2) «الشوقيات» (1/16).

الفرعونية

ممَّا تعلَّمت من التأمل في قصة موسى -عليه السلام- أن هناك فرعونًا، وهناك فرعونية، وأن هناك حِيَلًا استخدمها فرعون تجاه قومه عامةً، وحِيَلًا استخدمها تجاه موسى ودعوته خاصةً.

فرعونية لا فرعون:

نحن نطلق لفظ الفرعونية اقتباسًا من فعل فرعون، وأسلوبه، وطريقته في ممارسة الحكم والسلطة، والفرعونية ليست نسبة إلى شخص، فالفرعونية صفة أو حالة، تعبر عن الظلم، وعن البغي، وعن التسلط، وقبل أن نهجو فرعون وعمله علينا أن نحاول أن نستخرج بالمناكيش آثار الفرعونية التي قد تكون مترسخة في دواخلنا وفي ضمائرنا، ولها تجليات عدة، منها:

- أن يتقمَّصها شخصٌ فيصير فرعونًا في سلوكه؛ من تسلُّطٍ على النَّاس، واستكبار، وظلم، وليس شرطًا أن تملك جنودًا وأعوانًا وسُلطة لتكون فرعونًا، بل يمكن أن تكون فرعونيتك على زوجتك، أو على ولدك، أو على طلابك، أو على الموظفين عندك.. كلُّ أحدٍ بحسبه وعلى قَدْره.

- ويمكنك أن تشاهدها في السياسة الاستعمارية التي تقوم على أخذ الخيرات، وأخذ الخبرات، وأخذ المعادن من كثير من البلاد، ولا تأبَه بمن مات من الناس أو جاع، كما وقع في الصومال أو في أفغانستان، على سبيل المثال.
- أو تقوم على صناعة أسلحة تقتل الإنسان مع الحرص الشديد على المحافظة على المباني وعلى الإنشاءات، فأصبح الإنسان أحط رتبة عندهم من الحيوان، وأحط من المنشآت والأدوات.

هذا هو معنى الفرعونية بمفهومها الشامل، والتي تصل في النهاية وبشكلها الأكثر تجليًا إلى فعل الظالم الباغي الذي يتجرد حتى من الإنسانية، لدرجة تصل به إلى أحط من الحيوانية؛ فلو أردنا أن نقوم بمقارنة سريعة بين الحيوانات، والتجرد من الإنسانية سنجد أن الحيواناتِ المفترسة كالذئب والأسد مثلا، لا تفترس إلا لتأكل، وفي حالة الشِّبع لا تفترس، بينما الإنسان يتعدَّى حدود الحيوانية وحدود السِّباع حينما يقتل لشهية القتل، ولا يعد من يقتلهم بشرًا، وإنما يعدهم بمرتبة أحط من البهائم والحيوانات، فيتجرد الإنسان من إنسانيته، وأخلاقه، ومن أي قيم أخرى.

فرعون موسى:

الفراعنة أُسرٌ كثيرة ولهم تاريخ عريق، ويتفاوتون في الرتبة، لكن الفرعون الذي عاش معه موسى غير الفرعون الذي بُعث إليه موسى فيما بعد، على أصح الأقوال، وقد حكى الله -سبحانه وتعالى- عن فرعون موسى قائلا: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ

عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، والعلو لا يُقصد به مجرد السلطة، والعلو الحسن، بل علو قال عنه سبحانه في السورة ذاتها: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾؛ علا علوًّا مذمومًا؛ علوَّ تجبُّرٍ وتكبُّرٍ وطغيان.

والفراعنة يرون أن الدماء الإلهية تجري في عروقهم، فعندما يقول فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، فهو يعتقد أنه من أبناء الآلهة، وعندما يقول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾، فهو يعتقد هذا المعنى، فهو يرى نفسه مستحقًّا للعبادة، وأنه من نسل الآلهة؛ لذلك يحتقر شعبه، وإذا احتقر الحاكم شعبه فلن يرى أنه بحاجة إلى خدمات ولا إلى عدل، وإنما يرى أن نفاذ قدَره فيهم بقتل هذا وإعفاء ذاك فضلٌ ومنَّةٌ منه.

وفرعون موسى جعل أهل الأرض شِيَعًا، والمقصود بالأرض مصر، جعل أهلها مستويات وطبقات بإثارة العنصرية، فجعل بعضهم مقربين، ولهم ميزات مثل القبط والفراعنة والسحرة، كما قال عن السحرة: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾، وترك البقية من الناس المسحوقين يعانون ما يعانون، أو يهلكون في أي وادٍ، فهذا من معاني قوله: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾.

وجعل بني إسرائيل بمنزلة الخدم والعبيد والأرِقَّاء: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ﴾، وجعل الله -سبحانه وتعالى- استحياء النساء مما يعاب به فرعون؛ لأنه ما استحياهن رحمةً بهن، وإنما استحياهن من أجل المتعة والخدمة، ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾، فكونه يقتل هؤلاء الناس فهذا من الفساد، وكونه يقيم العلاقة بينه وبين شعبه على أساس الولاء والطاعة والثقة وليس على أساس الكفاءة فهذا من الفساد.

كان نظام حكم فرعون نظامًا مستبدًّا قاسيًا باغيًا، شديد البطش والوطأة؛ ولذلك قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾ لاحظ الجنود ﴿كَانُوا خَاطِئِينَ﴾، فكان يستعين بهؤلاء الجنود على العُزَّل، لم يكن عنده قيم أخلاقية في الإدارة والحكم والسلطة والعلاقة وإنما كان يعتمد على مبدأ القوة: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

ومن أجل هذه الطبقة كانت دعوة موسى: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾، أي: ارفع عنهم التعذيب والسُّخرة والمهانة.

إستراتيجية فرعون مع موسى:

كل ما سبق من فرعون كان تجاه موسى وغيره، ولكن قامت تجاه موسى إستراتيجية خاصة بعد قيامه بالدعوة، اعتمدت على عدة أمور:

الأول: تعمُّد تشويه الحق، بحيث لا تصل رسالة موسى واضحة إلى الناس، فلبّس عليهم، من ذلك قوله: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾، هذا ورد في سورة القصص وفي سورة غافر، وكنت أتساءل عن قصد فرعون من ذلك الصرح، في حين أنه يمكنه أن يرقى أعلى جبل ويحقق المقصود، ولكن -والله أعلم - كانت هذه حيلة من حيل فرعون، حيث أراد أن يبني له هامان صرحًا مرتفعًا؛ فيغيب فيه عن أعين الناس ويعتكف فيه لبعض الوقت، ويقوم بطقوس توهم أنه يتعرف إلى وجود إله في السماء أو عدم وجوده، وبعدها ينزل ويخبر الناس أنه تحقَّق وتبيّن له عدم وجود إله في السماء، فهي لعبة القصد منها تشويه الحق.

الثاني: حاول فرعون أن يُذكّر موسى بماضيه وقتله للرجل القبطي، وهكذا تجد أن كثيرًا من الفراعنة يحاولون أن يفتحوا صفحات الماضي، أو يتهموا الأبرياء أو يذكروهم بخطأ وقعوا فيه يومًا من الأيام.

الثالث: كان فرعون يوهم بوجود مؤامرة ومكر من قِبل موسى بالاستعانة بأناس آخرين، لذلك لما أُلقي السحرة ساجدين، قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾.

الرابع: اتهام النيات، حيث قال لموسى وهارون: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾. فهذا اتهام لنيتهم بأنهم ليسوا أهل دعوة ولا إيمان، وإنما يريدون السلطة، وهذا الاتهام مؤثر في الناس ويُصدّقونه، خاصة إذا كثر تكراره مرارًا.

الخامس: اتهام العقول، فيقول للناس: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، يتهم بالجنون عقل النبي وعقول من معه.

السادس: التهديد والوعيد بقوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾، وهذا مؤثر أيضًا.

السابع: التعذيب والسجن والقتل، وكل الإجراءات التي تردع الناس عن الإيمان بموسى وبمن معه.

الثامن: التهوين من شأن الرسل، ومن شأن الدعوة: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾، يهون من أمر هذه الفئة بأنها قليلة وسينتهي أمرها، فيستريب الناس في مستقبل هؤلاء، ويخشون ما سيحل عليهم من مصائب، فيفضّلون البعد عنهم.

التاسع: تعظيم النفس، فكان فرعون يعظم نفسه بأنه ابن الآلهة، وأنه السيد العظيم صاحب الملك، فيقول: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾، ألسنا نحن ورثة ملك مصر من زمان بعيد؟ ﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيَ﴾، وهو إما أن يقصد نهر النيل أو يقصد الترع التي أُخرجت من نهر النيل إلى قصورهم، وتجري من تحتهم فعلًا.

ويباهي بالذهب الذي يرتديه ويملأ قصره فيقول عن موسى: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾، فيظهر من متحف الآثار الفرعونية في القاهرة أنهم كانوا يتخذون أَسرّة من ذهب، وكراسي من ذهب، وأوانيهم من ذهب، وأساورهم من ذهب، فألمح إلى أن موسى ليس عنده مظاهر دنيا كالتي عندنا. ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾، وليس عنده ملائكة جاؤوا يشهدون له بأن كلامه حق لا شك فيه، وبما أنه ليس عنده هذه ولا تلك، فلماذا نؤمن به؟!

ووصف الله تعالى هذه الحيل بقوله: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾، وهذه هي مشكلة الفرعونية، الاستخفاف والتلاعب بالناس.

* * * * *

عبدٌ مأمورٌ

مما تعلمت من التأمل في قصة موسى، أن هناك طائفتين:

- الذين علوا في الأرض وجعلوا أهلها شيعًا وأفسدوا فيها، فهؤلاء مذمومون.
- الذين يقومون بأعمال صالحة ويعملون على دحض الباطل ونصرة الحق، فهؤلاء مأجورون.

سيكولوجية الطاعة:

تتعجب من طاعة الناس لفرعون! وربما يفسر لك سبب هذه الطاعة قصة ضابط أوروبي في الحرب العالمية اسمه "أيخمان"، قتل عددًا من اليهود، وأثناء تحقيقهم معه قبل إعدامه، سألوه لماذا قام بهذا العمل؟ فقال: أنا كنت موظفًا أقوم بما يطلب مني، وما كنت أنتظر أن يطلب مني أحدٌ مبررًا لما قمت به، بل كنت أنتظر مكافأة وترقية؛ لأني قمت بعملي على أحسن ما يكون!

هذا يوضح لك كيف يستطيع فرعون أن يصل إلى طاعة الناس.

ومن الطرائق التي يصل إلى الناس بها:

- الاستخفاف بالناس، والتأثير في عقولهم، خاصةً عندما يضعف يقينهم، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.
- آلية توزيع المهمَّات، بحيث يتحمّل كل واحد جزءًا قليلا من المهمة، فإذا سئل أحدٌ يشارك في مهمة خاطئة قال: أنا عبد مأمور، لا تسألني.

ففرعون كان يوزع الأدوار ويقسم المسئوليات؛ فواحد مهمته أن يحصي المتمردين من بني إسرائيل في قوائم، وهذا الإحصائي يقول: أنا أعمل عملا عاديًّا مجرد إحصاء، رغم أنه يعرف لماذا يقوم بالإحصاء.

والثاني يقوم برصد البيوت، ويقول: أنا أمارس عملًا عاديًّا، أكسب منه رزقي، وأطعم به أولادي، كما يقول الشاعر هاشم الرفاعي عن السَّجَّان:

والصَّمتُ يقطعُهُ رَنينُ سَلاسِلٍ ... عَبَثَتْ بِهِنَّ أَصابعُ السَّجَّانِ
ما بَيْنَ آونةٍ تَمُرُّ وأختها ... يرنو إليَّ بمقلتيْ شيطانِ
مِنْ كُوَّةٍ بِالبابِ يَرْقُبُ صَيْدَهُ ... وَيَعُودُ في أَمْنٍ إلى الدَّوَرَانِ
أَنا لا أُحِسُّ بِأيِّ حِقْدٍ نَحْوَهُ ... ماذا جَنَى فَتَمَسُّه أَضْغاني
هُوَ طيِّبُ الأخلاقِ مثلُكَ يا أبي ... لم يَبْدُ في ظَمَأٍ إلى العُدوانِ
لكنَّهُ إنْ نامَ عَنِّي لَحظةً ... ذاقَ العَيالُ مَرارةَ الحِرْمانِ[1]

وثالثٌ يقوم بحراسة السجن، ويقول: هذا عملٌ طبيعي؛ السجن يحوي مجرمين وظلمةً.

(1) «ديوان هاشم الرفاعي- المجموعة الكاملة» (ص359).

ورابعٌ ينقل الناس من بيوتهم إلى السجن، ويقول: نحن عبيدٌ مأمورون، وهؤلاء الناس لا ندري ما فعلتهم.

وخامس يقوم بالمحاكمة ويقول: أنا قاضٍ أحكم وفق المعلومات التي تصل لي وفق التحقيق...وسادس... وسابع..

وأحيانًا يكون ألمك من الشخص الذي أوصل الأذى لك مباشرة أكثر من ألمك من الشخص الذي أمره؛ لأنه إنسان مثلك يرتكب خطأ في حقك، فتتألم منه أكثر مما تتألم ممن أرسله، لكن الناس تغيب عنهم مثل هذه المعاني.

وتبقى العقدة الرئيسة في المجرم الأكبر الذي يقوم بتنفيذ عملية قتل، وهو يعلم أنَّ هذا قتلٌ بغير حقٍّ وبغير شرعية، وبغير إذن من الله سبحانه، ولن تعدم في أي أمة أو شعب من الشعوب أن تجد أناسًا فقدوا الضمير فصار عندهم الاستعداد لأن يقوموا بهذه المهام، فالسياف مثلًا الذي تعود على القتل أو إطلاق الرصاص، يتساوى عنده أن يطلق رصاصة على نيشان يجرب فيه، أو يطلقها على إنسان، فالأمر عنده سيان، وربما يستمتع بهذه الجريمة، وربما يفخر بعدِّ الناس الذين قطع رؤوسهم.

إذًا هذا ما كان يعمله فرعون، يوزع الأدوار بطريقة تجعل كل أحد يشعر بأنه جزء من ماكينة كبيرة جدًّا، ويقوم بمهمة قد تبدو بريئة في نظره.

الجزاء:

وهذه التبريرات التي يسوقونها لا تعفيهم من المؤاخذة في الدنيا والآخرة، فالله تعالى ذكر صنفين من أهل النار في مواضع كثيرة: صنف المستكبرين، وصنف المستضعفين، وحكى الله تعالى الحوار بين الضعفاء والمستكبرين إذ قالوا: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾.

وقال أيضًا: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

وفي القرآن أيضًا: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾، ويقول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾.

فكونهم تبع لا يعفيهم من العقوبة والتبعة والمسئولية، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا﴾، فلو تخلى هؤلاء الجنود التابعون عن نصرة طغيان فرعون، ولو تمرد عليه مستشاروه ما طغى، فالبطانة الصالحة تؤدي دورًا كبيرًا في التأثير والإصلاح، والعكس يعطي المشروعية للظالم.

وغير مقبول أن يتحجَّج الإنسان بأنه مأمور، بل يجب أن يشعر الإنسان بمسئوليته وألا يفعل ما يفعل من أجل وظيفة، أو من أجل منصب إعلامي،

أو من أجل شهرة، أو سمعة أو حفاظاً على مكانة، أو طمعاً في المستقبل، أو أي اعتبار أو مصلحة.

ويجب أن نتأسى بموسى -عليه السلام-: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾، فإذا لم تقل الحق فلا تقل الباطل، وإذا لم تفعل الصواب فلا تفعل الخطأ، وثِقْ بأن الله -سبحانه وتعالى- سوف يحفظك، فكم رأينا في أعمارنا القليلة والقصيرة من أناس تزيّنوا ونافقوا ودافعوا عن الباطل، ثم رأوا في حياتهم الدنيا كيف أن الله - سبحانه وتعالى- أبعدهم ولم يحصلوا على نقير، ولا قطمير مما كانوا يحلمون به.

وكم رأينا من أناس تحمّلوا وصبروا وصابروا، وانجلت الغمة وزالت المعاناة وعاد لهم أفضل مما كانوا يرجون ويتوقّعون، فالرزق عند الله، والعطاء عند الله، والدنيا والآخرة عند الله -سبحانه وتعالى-: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

والنجاة من الفرعونية، تكون بالإيمان بأنه لا رزق ولا مال، ولا منصب ولا أي سبب من الأسباب كافٍ بأن يجعل الإنسان يقف في صف الظالمين.

* * * * *

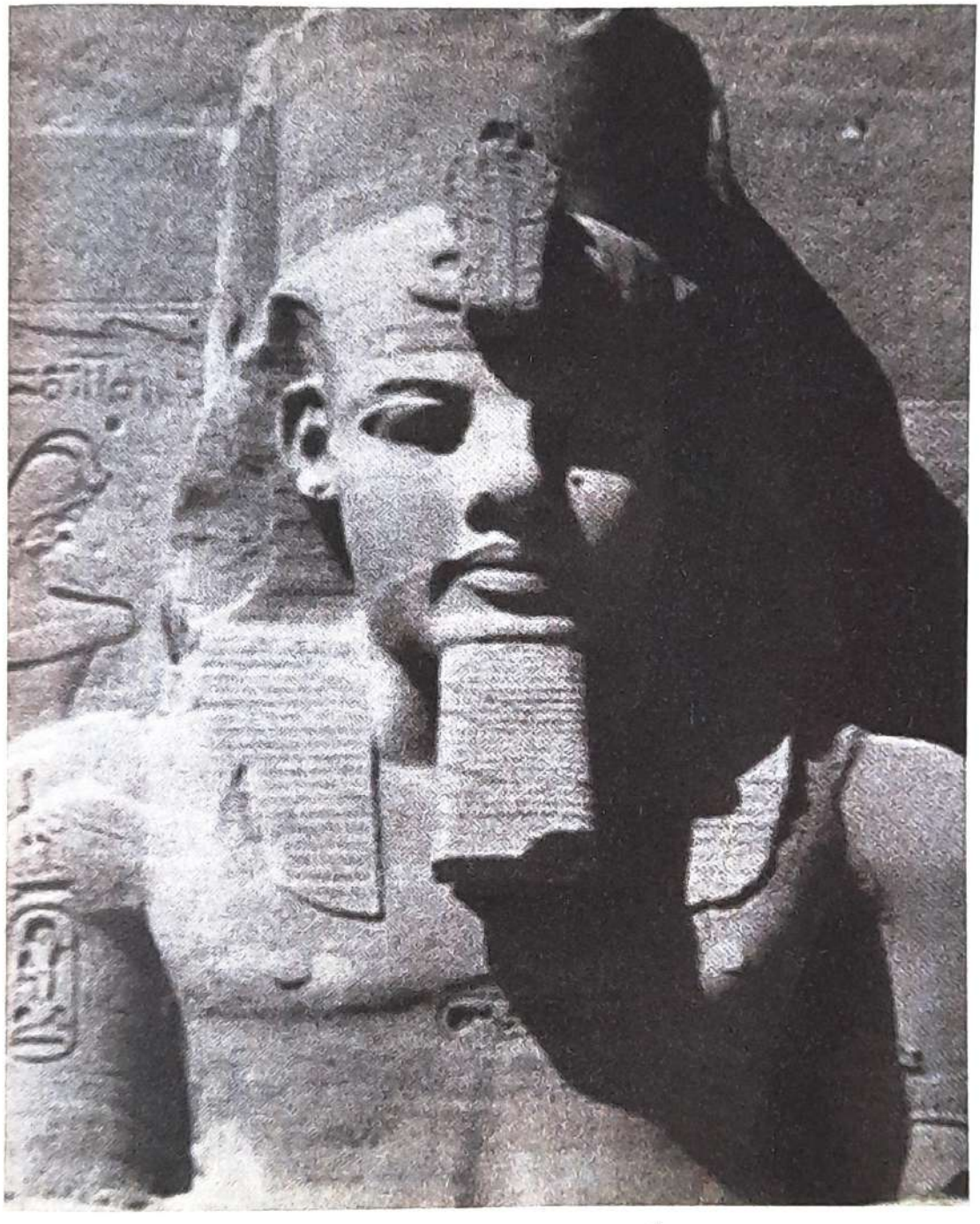

رمسيس الثاني أكبر ملوك مصر القديمة وهو الذي ولد موسى في عهده

آلام الميلاد

اسم أم موسى -عليه السلام- «يوكابد» على المشهور، وهي من ذرية لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وأبوه عمران، وفي العبرية ينطقونها بفتح العين، وهو من الفخذ نفسه الذي منه الأم، حتى قيل إنه قريب جدًّا من الأم، فالأم والأب ينتميان إلى جدٍّ واحدٍ.

آيةٌ مدهشةٌ:

دائمًا أندهشُ إذا قرأت في سورة القصص؛ فالأم إذا خافت على ولدها عادةً يقال لها: أخفيه في مكان، أو ضعيه عند الجيران، لكن الله - سبحانه وتعالى- يقول: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾، لو كنت لم تسمع الآية من قبل فلك أن تتخيل ماذا سيكون الأمر: ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾، في البحر، هذا هو أشد الخوف، ورغم ذلك يقول لها: ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

وعن بلاغة هذه الآية يُحكى أن الأصمعي مرّ على حيٍّ من أحياء العرب، فوجد بنتًا صغيرة، أعجبته فصاحتها.

فقال لها: ما أفصحكِ!

فقالت: هل ترك القرآن لأحد فصاحة؟

فقال: نبهيني على آية فصيحة منه.

فقالت: اقرأ آية القصص: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. فقد جمعت الآية أمرين وهما: أرضعيه وألقيه، ونهيين وهما: لا تخافي ولا تحزني، وخبرين تضمَّنا بشارتين، وهما: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1].

ومعنى قولها: قتلت إنسانًا بغير حلِّه، أرادت أنها قتلت نفسها بعدم فعل الطاعات، حيث انتصف الليل ولم تقم بين يدي الله تعالى.

رؤيا مؤرِّقة:

فرعون موسى، هو "**رمسيس الثاني**" على الراجح المشهور عند المفسرين والعلماء، عَلِم إما عن طريق رؤيا أو أن الكهنة أخبروه أن هناك غلامًا من بني إسرائيل سوف يولد، ويكون زوال ملكه على يديه، هذا هو المشهور في الرواية ولم يرد في القرآن أو الحديث، وهناك احتمال أن فرعون رأى أن بني إسرائيل يتكاثرون، وعادةً يكون تكاثر الناس في البيئات الفقيرة عاليًا، ورأى أنهم مع الوقت ربما تكون لهم قوة حضور، وقد يوجد من بينهم مصلحون أو مجددون أو ثوار، فقرر أن يقلل منهم وليس إبادتهم؛ لأنه يحتاج رجالهم في الخدمة والحراسة، والأعمال الثانوية التي لم يكن القبط يستطيعون أن يقوموا بها أو

(1) ينظر: «تفسير الماوردي» (236/4)، و«تفسير القرطبي» (252/13).

لا يريدون أن يقوموا بها، ويحتاج نساءهم أيضًا في الخدمة، وفي أعمال أخرى قد تكون إجرامية، ولذلك ذم الله -سبحانه وتعالى- فرعون بأنه: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾، فقد ذم ذبح الأبناء واستحياء النساء على السواء؛ لأن غرض استحيائهن ليس نبيلًا.

فقرر أن يذبح الأطفال المولودين، فأشار عليه القبط بأن يذبح المواليد الذكور عامًا ويتركهم عامًا؛ حتى لا يفقدونهم بالكلية، فنشر المخبرين للرصد والتبليغ عن كل طفل وليد جديد فيتم ذبحه.

الأُمُّ واليَمُّ:

هارون -عليه السلام- أخو موسى وأكبر منه، ولم يتعرض للمحنة التي تعرض لها موسى؛ لأنه وُلد في السنة التي لا يُذبح فيها ولذلك سَلِم، أمَّا موسى فلحكمةٍ إلهيةٍ وألطافٍ ربانيةٍ وُلد في السنة التي يُذبح فيها المواليد، ومن هنا بدأت الملحمة.

فالله -سبحانه وتعالى- أوحى إلى أم موسى أن تضعه في تابوت مصنوع بشكل قارب صغير يُطلى بالقار ويهيَّأ، وإذا خافت عليه من زبانية فرعون ترميه في اليم، والأقرب أن المقصود باليم هنا هو نهر النيل، وهو قريب من قصور الفراعنة، وقريب أيضًا من بيت موسى ووالديه؛ لأنهم كانوا في الخدمة، حتى ورد أن والد موسى كان حارسًا في قصر فرعون، ولذلك لم يكن غريبًا أن تقع القصة على مقربة منهم.

قد ذكر الله تعالى قصة أم موسى في موضعين؛ الموضع الأول في سورة القصص وفيها: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾، والإلقاء هنا أن يوضع بهدوء، لكن في سورة طه قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ﴾، لم يقل ألقيه بل اقذفيه؛ لأن موسى جلس ثلاثة أشهر عند أمه ترضعه، فأوحى إليها الله تعالى خلال هذه المدة: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾، فهذه معلومة قديمة عند أم موسى منذ أول الولادة.

وقد يكون الوحي بملَكٍ، وقد يكون بإلهامٍ، وقد يكون برؤيا، والأقرب أن الذي أوحى إليها ملَكٌ، ولم تكن أم موسى نبيةً كما ذهب ابن حزم[1].

والموضع الآخر في سورة طه، فقد قال الله تعالى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ﴾، هذا وحيٌ مباشرٌ في تلك اللحظة التي هجم رسل فرعون على البيت من أجل التقاط موسى، فكان الأمر عجِلًا، ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾، نفِّذي الشيء الذي مُهدِّتِ له نفسيًّا خلال الأشهر الثلاثة الماضية، وكما كانت أم موسى مأمورة بإلقاء موسى في اليم، كان اليمُّ نفسه مأمورًا بأن يلقي موسى بالساحل، ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾.

قلبٌ فارغٌ:

لما رمت أم موسى رضيعها في اليم، وسار اليم بالتابوت يرفعه الماء تارة ويخفضه أخرى، وصف الله حالة الفزع والخوف التي تعتريها بقوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾، فارغًا من كل شيء إلا ذكر موسى، ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فمن شدة الألم والمعاناة والفقد كادت أن تصرخ وتقول: ابني، ويسمعها الناس، ولكن الله -سبحانه وتعالى- ربط على قلبها فلم تذكر اسمه ولم تتكلم عنه من أجل وعد الله -سبحانه وتعالى- ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾، فهي مؤمنة ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(1) ينظر: «الفصل في الملل والنحل» لابن حزم (5/12-13).

لهفةُ مريم:

لموسى أخت تكبره بحدود تسع سنوات، اسمها مريم بنت عمران، وباسمها سميت أم نبي الله عيسى -عليه السلام-؛ لأنهم يسمون بأسماء الصالحين السابقين، فيمر الاسم في كل جيل تأسيًا بالسابقين، ورجاء أن الجديد الذي سمي عمران يكون مثل عمران الأول، والبنت التي سميت مريم تكون مثل مريم الأولى.

فطلبت أم موسى من أخته مريم أن تتبع تابوت موسى، ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾، وهي فتاة إسرائيلية مدرَّبة؛ لأن بني إسرائيل كانوا يعيشون كبتًا وظلمًا، مما رسَّخ عندهم خبرة وتلطُّفًا وحسن تأتٍّ للأشياء؛ لذا مرَّت من عند القصر، وهذا طبيعي؛ لأن بيوتهم قريبة، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، فهي ترى أخاها لكنها تتظاهر بأنها غير مهتمة، و﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يعرفون شيئًا.

رضيعٌ في القصر:

امرأة فرعون اسمها آسية بنت مزاحم، والأقرب أنها آسيوية، ويقال إنها من بقايا الهكسوس، ولما جاء البنات لها بالتابوت الذي وجدنه وهن يسبحْنَ في النهر، وجدت رضيعًا، ورأت موسى، وكان مثل سائر بني إسرائيل، أسمر اللون آدم، بملامح عادية، لكن فيه سرٌّ غريبٌ، فالله تعالى قال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾.

فبمجرد أن رأته أحبته، فأحبت الملاحة وملامحه، وكان يبتسم كما في بعض الروايات، فدخل قلبها وقررت أن تتبناه، وأن يكون عندها في القصر، وهكذا كانت نجاة موسى عليه السلام.

* * * * *

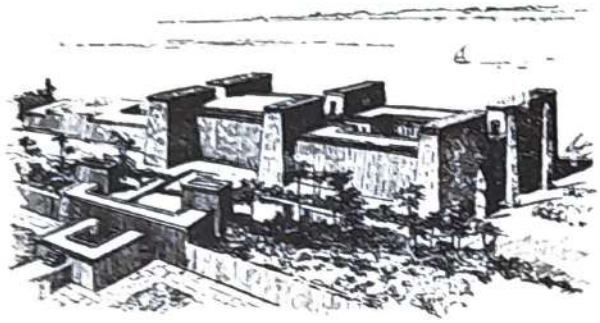

في القَصر

اسم موسى مكوّن من كلمتين باللغة العبرية: الماء، والشجر (مو، شي)؛ لأنهم وجدوه بين الماء والشجر، وبعضهم يذكر أن اسم موسى معناه المنتشَل من الماء.

في ظل فرعون:

انتقل الرضيعُ للعيش في حِجر فرعون، فصار الأمر كما قال الشاعر:

تَسَتَّرْتُ منَ دهْري بِظلِّ جَنَاحِه فَصِرْتُ أرى دَهْري وليس يَرَاني
فَلَوْ تَسَلِ الأيّامَ ما اسْمِي لما درت وأيـنَ مـكاني ما عَرَفْنَ مَكاني[1]

لقد قتَّل فرعون أطفال بني إسرائيل الرُّضَّع بصورة دنيئة ومنحطة، ليس ذبحًا وإنما تذبيح: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾، بينما الطفل الذي فعل كل هذا خوفًا وفرَقًا منه يعيش في قصره، وتتبناه امرأته آسية.

وقد أثنى الله تعالى على آسية وجعلها مثلًا للذين آمنوا: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ

(1) انظر: «ديوان أبي نواس» (ص362).

﴿وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾، فالأقرب أن هذه هي، وأنها آمنت بموسى.

وكانت امرأة جميلة مدللة ذات نعمة، عاقلة ذكية، ولها حضور في القصر غير عادي، ومع ذلك عزفتْ عن هذا كله، واختارت الله سبحانه وتعالى، وربما كان هذا ببركة حضانتها لموسى واحتوائها له.

هذه الحماقة التي ارتكبها فرعون أتت بعكس ما كان يريد، وحقَّقت مراد الله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، فإرادة فرعون هي قتل هذا الرضيع، وإرادة الله ألا يعيش موسى في حِجر والديه في البيئة الإسرائيلية الفقيرة المضطهدة، الراسخة في العبودية، المليئة بألوان الاضطهاد والمخاطر، وتنتشر فيها الجريمة بسبب الكبت والضغط والشدة التي يواجهونها من فرعون.

فأذِن - سبحانه وتعالى- أن يُلتقط هذا الرضيع ليعيش في قصر فرعون، فيستفيد من إيجابيات هذه البيئة التي عاش فيها فرعون وميزاتها، فكان بمثابة الأب له يرعاه ويُقدِّره، وامرأة فرعون كذلك كانت تهتم به، وابنة فرعون أحبته، وورد أنها كانت مريضة ولما جاء موسى تعافت، فصاروا يتفاءلون به، وكل هذا من تدابير الله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ظَنَّ فِرْعَوْنُ أَنَّ مُوسَى لَهُ وَا ... فٍ وَعِنْدَ الكِرَامِ يُرْجَى الوَفَاءُ

لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِهِ يَوْمَ رَبَّى ... أَنْ سَيَأْتِي ضِدَّ الجَزَاءِ الجَزَاءُ

فَرَأَى اللَّهُ أَنْ يَعُقَّ وَلِلَّه ... تَفِي لا لِغَيْرِهِ الأَنْبِيَاءُ[1]

(1) «الشوقيات» (12/1).

بيئةٌ سويةٌ:

عاش موسى في قصر فرعون، واستفاد من إيجابيات القصر، فلم يعد يواجه الظلم ولا العسف ولا العدوان ولا الطغيان، وأصبح يمشي بين الناس معززًا مكرَّمًا؛ لأنه ينتمي إلى قصر فرعون، بيئة فيها تعليم جيد، فبالتأكيد تعلّم ودرس ألوان العلوم التي كانت تُدرَّس لأبناء الملوك وعِلْية القوم.

فقد استفاد من هذه البيئة، كما استفاد من بيئته الأصلية؛ لأنه كان يتردد على أمه للرضاع، وواضح أن علاقته استمرت بها بعد ذلك، ومن أجل أن يتردد عليها أذن الله -عز وجل- أن ترضعه أمُّه في البداية بضعة أشهر، وهذا معناه أنه تعرَّف لبنها، ولذلك يقول ربنا سبحانه: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾، يعني قبل أمِّه، كلما عرضوه على مرضعة رفضها، فهو عمل مقدَّر ومكتوب عند الله؛ ألَّا يلتقم الصبي ثدي أي امرأة مهما كانت، من أجل أن يصل إلى أمه التي جرَّب لبنها في فترته الأولى.

ولما رأت أخته حَيْرتهم في رضاعه قالت لهم: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾، كادت أخته أن تبوح بالسرِّ، فما أدراها أنهم ناصحون؟ وتعلَّلت بأنه حدث أكثر من مرة أن يلجأ إليها نساءٌ إسرائيليات يلدن والوليد لا يقبل ثديها، فيأتون به إلى أمي وترضعه. وهنا يثار سؤال آخر كاد يكشفها، وهو: من أين لأمك باللبن؟ هل لها طفل؟ وأجابت البنت: نعم لها صبي، ولكنه قُتل مع الذين قتلوا، ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ﴾، وهذا الوعد الإلهي الأول، ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، فصار يؤتى لها باستمرار مرتين أو ثلاث في اليوم.

﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾، ذهب الحزن الذي خالطها على فراق ولدها، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، والمقصود وعد الله تعالى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، فصار موسى يتردد بين قصر فرعون وديار الإسرائيليين، وبالتأكيد هذا جعل الإسرائيليين يعاملونه بشكل محترم؛ لأن موسى قريب منهم ويعرفهم ويعرفونه، وربما ساعد على إزالة بعض الظلم.

وفي بيت أمه تلقّن التوحيد والإيمان بالآخرة والإيمان بالأنبياء والمعرفة، وهذا مهم جدًّا، عرف هويته وأنه ليس بفرعوني ولا قبطي، وليس فرعون أباك ولا آسية أمَّك، وهذه التي ترضعك هي أمك الحقيقية التي ولدتك، وعمران هو أبوك، وعرف أخته وعرف أخاه.

وبعدما اطمأنوا إلى أنه وصل لمرحلة يمكن فيها أن يكتم السر أعلموه أنه من بيت نبوة، من نسل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وهذا يعطي للإنسان معنى الاصطفاء قبل أن يُصطفى، ويشعره بأكثر مما نشعر به نحن من نشوة عندما نقرأ قصص الأنبياء ونقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، فموسى من آل إبراهيم؛ لأن إبراهيم جده، وهو من آل عمران لأن عمران أبوه، ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾.

نبوءة المخلِّص:

وكان بنو إسرائيل يتناقلون فيما بينهم نبوءة مفادها أن يوسف -عليه السلام- بشَّر بني إسرائيل بشابٍّ قويٍّ محاربٍ عزيزٍ ثائرٍ اسمه موسى بن عمران، يقود بني إسرائيل ويخلصهم من الظلم والطغيان والعبودية التي رسفوا

فيها مئات السنين في سلطة الفراعنة، فكانوا يتوارثون الاسم نفسه تعرُّضًا لهذه النبوءة، لكن الله -عز وجل- ادَّخرها لموسى.

ويمكن ألا يتعلق أمل بني إسرائيل بنبوءة مع أنها واردة، ولكن يتعلق بأنهم يحسون بالكبت والقهر والظلم، فقد عاشوا من عهد يعقوب وأبنائه إلى عهد موسى سبعمائة سنة، وقد زاد عددهم كثيرًا، ومع ذلك لا يشعرون بالوطنية، ويشعرون بأنهم مواطنون بلا هوية وليس لهم حقوق، وأنهم مجرد عمَّال يحملون الحجارة وينظفون ويحرسون، ويخدمون آل فرعون، ولذا كانوا ينتظرون مخلِّصًا يخرج من بينهم يعيد لهم قوتهم ومكانتهم، وشاء الله -سبحانه وتعالى- أن ينشأ هذا الغلام في حجر فرعون.

السَّيلُ من قطرةٍ:

يبحث الناس عن المستقبل من خلال تتبع الأحداث الكبيرة، ويتصورونه في الأحداث المدوية التي تهتم بها الصحف والفضائيات والشبكات الإلكترونية المختلفة مثل قيام دول وسقوط دول، ولذلك يصابون بالإحباط، فقد تكون القصص الكبيرة الضخمة ليست في صالحهم، ولا ترضي طموحهم، وقد تكون ضد أحلامهم وتطلعاتهم، ولو أنهم غيروا طريقة البحث وطريقة النظر إلى المستقبل بقراءة الأشياء الصغيرة لكان خيرًا لهم.

فالله -سبحانه وتعالى- يعلمنا أن نبحث عن المستقبل في القصص الصغيرة جدًّا وفي الأحداث الصغيرة جدًّا التي ربما لا تلفت نظر أحد، ففي قصة موسى بعد المقدمة الضخمة الهائلة في أن كل شيء يتم وفق إرادة الله، وما دام الله يريد فليس هناك من يقف أمام إرادته. كانت البداية: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ

﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾، قصة عادية جدًّا وصغيرة جدًّا في نظر الناس، لأن كل أم ترضع طفلها، ولكن السر كله في سياق هذه السورة؛ لأن هذا الإرضاع كان هو النواة لهذا الحدث الضخم المدوّي في تغيير موازين القوة ليس في مصر وحدها بل في المنطقة العربية وما وراءها.

وهذا نموذج يشبه نموذج يوسف -عليه السلام- لما تحول بفعل إخوانه وكيدهم إلى مستعبَدٍ مسترَقٍّ يُباع، ووجد نفسه في قصر العزيز في مصر، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، هذه هي البداية الصغيرة العادية جدًّا، دعاها إلى أن تكرمه وتهتم به، حيث توسم فيه الخير، وقال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، هذا أقصى ما هنالك، لكن تعقيب الله -عز وجل- على هذا قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾، فقد كانت إرادة الله التمكين، ﴿مَكَّنَّا﴾، يعني جعلنا له مكانة، هذه كانت شرارة البداية، كانت بداية صغيرة جدًّا، لكنها كبرت حتى أصبح يوسف -عليه السلام- على خزائن الأرض، ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، ثم قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا﴾.

وكان فرعون وملؤه يقولون عن موسى ومن معه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾، هم عدد قليل لا يُلتفت إليهم، ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾، مزعجون لنا، ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾، أي نحن سنتخذ الاحتياطات كافة ضدهم، ومع ذلك لم يغنِ عنهم من الله شيئًا؛ ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾.

فهذه نماذج تجعلنا نبحث عن المستقبل في الأحداث الصغيرة التي ربما لا تلفت نظر أحدٍ.

وراثة بني إسرائيل:

كان مستقبل رضاعة أم موسى لموسى هو وراثة بني إسرائيل لفرعون؛ لأن الله -سبحانه وتعالى- قال: ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾، يعني الفراعنة، ﴿ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾، ﴿ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴾، ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾، ومرة أخرى قال تعالى: ﴿ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾، ﴿ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾، واختُلف في تحديد المقصود بالقوم الآخرين من هم، وموسى ومن معه من بني إسرائيل غادروا مصر كما هو معروف باسم الخروج الكبير، فكيف ورثوا فرعون وقصوره وكنوزه وزروعه وعيونه؟ والإجابة عن ذلك بأحد احتمالين:

1 - المقصود أن الله تعالى أورث بني إسرائيل مثل هذه الأشياء وليس عين هذه الأشياء، أي: أورثهم كنوزًا وزروعًا وعيونًا وأرضًا ومكانة لكن في أرض أخرى وهي أرض الميعاد، فلسطين والشام وما حولها، وأكثر العلماء يقولون هذا.

2 - أن الله تعالى أورث بعضًا من بني إسرائيل هذه الأشياء، لأن فرعون بعدما غرق صارت حالة فوضى وانفلات أمني في العاصمة، وانتقلت إلى الجنوب؛ لأن الجيش انهار والحاكم غرق، ومن هنا كان أقرب الناس إلى قصور فرعون وزروع فرعون وكنوز فرعون هم الذين كانوا حرّاسًا لها وقائمين عليها، وهم بنو إسرائيل.

وهذا الاحتمال يعني أن بني إسرائيل لم يخرجوا كلهم فيما يسمى بالخروج الكبير، فقد كانت مجاميع من بني إسرائيل مرتبطة بفرعون بعلاقة؛ مثل الخدمة والحراسة والحساب وما أشبه ذلك، ولهم مصالح مع فرعون حيث لم

يكن عندهم قناعة بما فعله موسى -عليه السلام- ومن معه، فبقوا، ولما صار الانهيار استولوا على هذه الأشياء، فلذلك لما قال: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، يعني الذين لم يغادروا مع موسى، وهذا احتمال ذكره بعضهم.

لكن مقابل ذلك أورث الله تعالى بني إسرائيل الذين خرجوا أشياء كثيرة جدًّا، ذكرها الله -سبحانه وتعالى- على لسان موسى قائلا لبني إسرائيل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ﴾، النبوة أعظم كنز، ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾، ولم يكن بنو إسرائيل كلهم ملوكًا، بل كان فيهم ملوك مثل داود وسليمان، هذا فيما بعد، لكن الأقرب أن قوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾؛ يعني جعلكم أحرارًا.

وموسى كان سببًا في حصولهم على الحرية وخروجهم من عبودية فرعون، ومعه صاروا شعبًا حرًّا مستقلًا، يملك قراره بنفسه، وكثير من السلف قالوا في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾، يعني كان الإسرائيلي يملك زوجة وبيتًا وخادمًا، وعنده طعام وشراب[1]، وهذا من معايير الملك، والنبي ﷺ في الحديث الصحيح يقول: «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا**»[2].

بناء الذات قبل بناء الحضارات:

مكث موسى يرعى الغنم في "**مدين**" عشر سنوات على الأكثر، عشر

(1) ينظر: «تفسير ابن جرير» (8/278-281).

(2) أخرجه الترمذي (2346)، وابن ماجه (4141) من حديث عبيد الله ابن محصن الأنصاري، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

سنوات يُهيأ لهذه المهمة التاريخية العظيمة، ولم تكن سنواتٍ ضائعةً من عمره، بل كانت فترة تمهيد وإعداد وبناء، كان الله -سبحانه وتعالى- يدير الأحداث وفق حكمته وسننه من أجل أن تتهيأ الظروف.

وكذلك يوسف -عليه السلام- مكث عبدًا رقيقًا فترة طويلة في القصر، ثم مثلها في السجن، ولم تضع هذه الفترة من عمره دون طائل؟ بل كانت فترة مهمة في بناء الذات.

وإني لأتعجَّب من بعض شبابنا الذين تجد لديهم رغبة في تغيير المستقبل، وهذا رائع بل ضروري، ولكن ليس لديهم بوصلة لبناء الذات، وتهيئة الطريق للتأثير في المستقبل، فيكون هناك أحيانًا نوع من التعسف واستعجال الخطوات وحرق المراحل؛ فحينما أرى مجاميع من شبابنا الواعد المتحمس الصادق المخلص تراق دماؤها في هذا البلد أو ذاك، في مشروع غير واضح، ربما كان من المصلحة أن يكونوا بعيدين عنه، فيرمي بروحه في أي معركة دون حسابات صحيحة.

إن الحامل على ذلك في الغالب هو رغبة في التغيير والإصلاح، ولكن ينقصها الرؤية والبوصلة، فلو تأمل الشباب قصة موسى وهو يرعى الغنم عشر سنوات، وقصة يوسف وهو يقضي سنوات طويلة بين الاستعباد في القصر والسجن، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين والصالحين الذين رعوا الغنم جزءًا من حياتهم؛ لأدرك أنه بحاجة إلى فترة إعداد وبناء وتهيئة ورؤية، يتجاوز فيها مرحلة العجلة.

فما بعث الله موسى ولا يوسف ولا عيسى ولا محمدﷺ إلا بعد فترة إعداد، فعن موسى قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، ولم يؤته النبوة إلا بعد حين، وكذلك يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، ومحمد ﷺ كذلك، بُعثوا في الأربعين وبعد الأربعين.

وورد أن سورة القصص نزلت على النبي ﷺ وهو يخرج من مكة إلى المدينة، وفيها تذكير بقصة موسى.

وفي سورة القصص قول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، يا محمد، إن الذي أنزل عليك القرآن سيُعيدك إلى مكة التي أُخرجت منها مطاردًا، وسوف يعيدك إليها فاتحًا، كما أعاد موسى بعد هذه السنوات إلى مصر كما هو معروف في سياق القصة.

حادي الأمل:

أعتقد أن النبوءة التي كان يتناقلها بنو إسرائيل عن زوال فرعون وظهور المصلح الثائر المجدِّد حفظت بني إسرائيل، ويجب أن يكون عند المسلمين اليوم أحلام حقيقية، وإيمان بالوعد الحق، فالإيمان بوعد الله الحق يحفظ لهم صبرهم وجَلَدهم؛ خاصةً المرابطين على بيت المقدس وأكناف بيت المقدس.

* * * * *

تَشْرِيقَةُ النُّبُوَّةِ

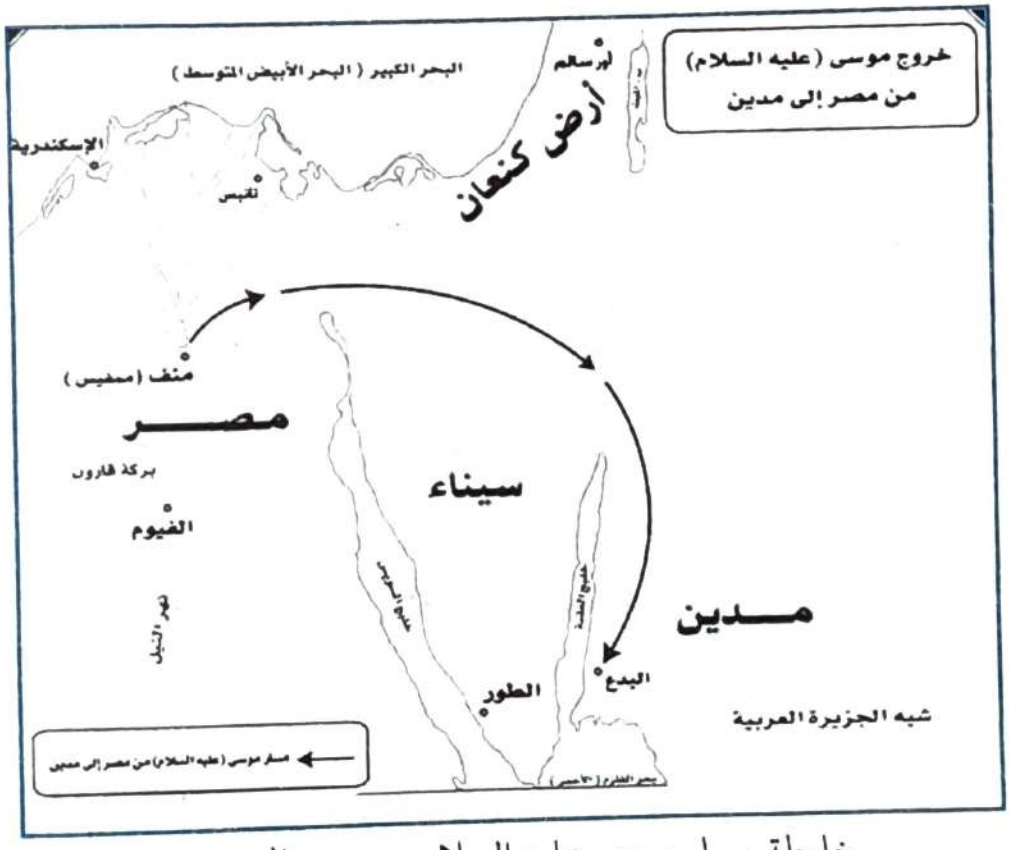

خارطة مسار موسى عليه السلام من مصر إلى مدين

مطارد شهم

جاء موسى إلى "مدين"، ووصل عند بئر ماء يستقي الناس منها، فرأى مشهدًا مألوفًا في كثير من البيئات التي تعتمد على القوة في مجتمع ذكوري، حيث يكون الضعيف مهملًا، سواءً أكان امرأةً أو شخصًا غريبًا، أو مقيمًا ليس من أهل البلد، حيث تجد هؤلاء مسحوقين في بعض المجتمعات.

ولذلك قيمة المجتمع في قدرته على التوازن بين مكوناته، فإذا أردت أن تعرف قيمة المجتمع لا تنظر إلى الأثرياء الأغنياء، الأقوياء، بل انظر إلى المسحوقين وأحوالهم.

ولأنَّ موسى -عليه السلام- إصلاحيٌّ، فقد فكَّر في هذا الجانب الإنساني، ولاحظ أن الرعاة الأقوياء يسقون من البئر، بينما فتاتان ﴿تَذُودَانِ﴾؛ تحفظان غنمهما حتى لا تختلط بغنم الناس، فلم يفكِّر في أنه مطارد وليس من أهل البلد، بل لأنه لا يصبر على الضيم، ولا يحب الخطأ، توجَّه مباشرةً إلى البنتين قائلا: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾، فردَّتا عليه، ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾، لا يمكن أن تسقيا في زحام الرعاة، وهذا معناه أن المجتمع لا يهتم

بمثل هؤلاء البنات، فالرعاة تهمهم أغنامهم فيسقونها من الماء الصافي، وإذا فرغوا غطوا البئر بالصخرة الضخمة، حتى ورد أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال عن وزنها أنها يحملها عشرة رجال[1].

فسوف تسقي البنتان غنمهما متأخرًا بعدما يذهب الرعاة كلهم، وهذا يستغرق وقتًا كبيرًا، وأيضًا ستسقيان غنمهما ماءً كدرًا؛ لأنه معروف عند العرب أن أقوياء القوم يسقون مواشيهم أولا، ويسقي الضعفاء في الماء الكدر بعدهم، كما قال عمرو بن كلثوم:

وَنَشرَبُ إِنْ وَرَدْنا الماءَ صَفوًا وَيَشرَبُ غَيرُنا كَدَرًا وَطينَا[2]

عمل المرأة:

وهذا يثير التساؤل حول عمل المرأة، والإجابة تنقسم لشقين: الحديث عن حكم عمل المرأة، والحديث عن طبيعة العمل الذي تعمل فيه المرأة؛ أما عن حكم عمل المرأة فالمرأة تعمل، ويجب أن تعمل، وجزء من مهمة المرأة أن تعمل، ولا أعتقد أنه يمكن الجدل حول عمل المرأة، فالمرأة تعمل لنفسها من أجل أن تحافظ على شخصيتها وعلى كينونتها وعلى جوانبها النفسية، تعمل من أجل الحاجة وتوفير المال لنفسها أو ولدها أو لأبيها، كحال هاتين الفتاتين: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾، فحق العمل مفروغ منه.

إنما الكلام عن طبيعة العمل الذي تعمل فيه المرأة، حيث يجب أن تعمل في عمل

(1) أخرجه ابن أبي شيبة (31842).

(2) ينظر: «جمهرة أشعار العرب» (ص295)، و«شرح المعلقات السبع» للزوزني (ص234).

يناسبها، وهذا واضح في هذه القصة، ويجب أن تُراعى بيئة العمل التي تناسبها، من ستر عن الرجال، فالفتاتان كانتا قريبتين من الرجال دون حواجز بينهما، ولذلك قال الله تعالى: ﴿تَذُودَانِ﴾، وتريان الرعاة لكن لم تشأ هاتان الفتاتان أن تدخلا في غمار الرعاة، رغم أنه لم يكن هناك قانون خارجي وقت هذه القصة يمنع البنات من هذا، ولكن القانون كان داخلهما، وأبوهما رجل صالح رباهما تربية حسنة، بحيث يمنعن أنفسهن باختيارهن من الاختلاط بالرجال، منعًا للمضايقة، فقد كانت الفتيات في عملٍ ولكن بروح جادة وتربية ممتازة.

والواضح أن البنتين في ذلك اليوم رجعتا إلى بيتهما باكرا خلافًا للعادة، فتساءل الأب عن السبب فأخبرتاه بالقصة: رجل قوي غريب لا نعرفه سقى لنا.

وكان موسى رجلا طوالًا كما وصفه النبي ﷺ في حادثة الإسراء والمعراج: «رأيت موسى رجلًا آدم طوالًا»، وقال: «كأنه من رجال أَزْدِ شَنُوْءَة»[1]؛ قبيلة من قبائل العرب في الجنوب تتسم بالطول.

جزاء الشَّهامة:

إحدى البنتين اسمها "صفورا"، بمعنى "عصفورة"، قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾، لأنهم بحاجة إلى راعٍ وإلى عامل في المزرعة، وبررت ترشيحها له بقولها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾.

يقول عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-: أكثر الناس فراسة ثلاثة؛ الأول: هذه البنت لما قالت لوالدها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ

(1) أخرجه البخاري (3239)، ومسلم (165) من حديث ابن عباس رضي الله عنه، والبخاري (3394)، ومسلم (168) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾. وفراسة العزيز لما قال عن يوسف: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾. وفعلًا نفعهم، والثالث أبو بكر الصديق حين ولَّى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما[1].

وهي حين قالت ذلك لاحظت قوة موسى حينما رفع الصخرة، ولاحظت الأمانة لما سقى لهما ثم تولى دون النظر إليهن، ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾، لم يَمُنَّ عليهما بالفعل ولم ينتظر كلمة شكر أو ثناء، وإنما أدى المهمة ثم انصرف عنهما.

ونتعلم من موسى -عليه السلام- عمل المعروف دون منٍّ، كما قال تعالى: ﴿لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾.

وكما قال الشاعر:

أَفْسَدْتَ بالمنِّ مَا أَوليتْ من نِعَمٍ ... ليسَ الكريمُ إذَا أسدَى بمنَّانِ[2]

ولما رجعت إحداهما، كما قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾، و(اسْتِحْيَاء) أبلغ من (حياء)، وقال (تَمْشِي) ولم يقل (تسعى)، مثلما قال: (رجلٌ يسعَى)، لأن الفتاة الحيية الخجولة تمشي بتمهل وحياء.

ثم قالت لموسى: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ﴾، لم تقل له: تعال معي، بل وضَّحت أن الدعوة من والدها، وأنها تتعامل معه، وأبوها في الصورة تمامًا، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة (37058)، والحاكم (345/2)، (90/3)، وصححه.

(2) ينظر: «ديوان امرئ القيس» (ص161).

واقترحت إحدى البنتين على أبيها: ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾، وقد عرفت قوته من حمله غطاء البئر وحدَه، وأما أمانته فقد ظهرت لها عندما دعت موسى لأبيها، إذ رفض أن تمشي أمامه حتى تدله على الطريق، وإنما قال كوني ورائي وانعتي لي الطريق؛ حتى لا تقع عينه على ملامح جسدها خاصةً حينما تتحرك الريح، ولذلك وصفته بالقوة والأمانة.

ولم يعاتب الرجل بنته على هذا الوصف، فبينهما تربية وثقة، وهي لم تقل: استأجره لأنه القوي الأمين، بل كان الخطاب غير مباشر، وقد يكون الرجلُ لَمَح أن البنت أحبت موسى، وموسى يُحَب لشكله، ويحب لروحه، ويحب لرجولته، ويحب لمروءته.

هذا عن البنت فماذا عن موسى؛ هل كان للحب مكان في حياته؟ أحب موسى ولكنه حب الثائر المهموم بقضية أمته، فعندما تقرأ في سيرته لا تجد الكثير من كلمات الحب أو التفاصيل في علاقته الزوجية، كالتي في سيرة سيدنا محمد ﷺ حيث تجد قوله لعائشة أنه يحبها[1]، وتجد أنه مات بين سَحرها ونحرها[2]، وتجد أنه سابقها، وسبقته مرة وسبقَها أخرى[3]، وتجد تغطية جميلة وكاملة للعلاقة الزوجية.

---

(1) كما في حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه عند الترمذي (3886)، وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه».

(2) كما في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري (1389)، ومسلم (2443).

(3) كما في حديث عائشة رضي الله عنها عند أبي داود (2578)، والنسائي في «الكبرى» (8893-8896).

لكن موسى كان منذ البداية مهمومًا بهمٍّ كبير، ولذلك أحَب حُبّ المهموم؛ الذي يعبر عن حبه بالفعل أكثر مما يعبر بالقول، والدليل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾، ومن ضمنهم الزوجة بالتأكيد، قال: ﴿لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾، يتلمَّس حاجة زوجته من دفء، وهذا مثال على تلمسه لحاجة أهله.

الحِجَجُ الثَّماني:

قضى موسى عشر حججٍ، والعام يسمى حجة، كما قال الشَّاعر:

أعـوامُ إقبـالِهِ كاليـومِ ذي قـصرٍ ويـومُ إعراضِهِ في الطُّـولِ كالحِجَجِ

ويحتمل أن موسى حجَّ في سنوات عمله؛ لذلك سميت حججًا؛ ففي «صحيح مسلم» أن النبي ﷺ مرَّ بوادي الأزرق، وسألهم أي وادٍ هذا؟ قالوا: وادي الأزرق[1]. فقال ﷺ: «**كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى عليه السلام فَذَكَرَ مِنْ طُولِ شَعَرِهِ شَيْئًا لاَ يَحْفَظُهُ دَاوُدُ، وَاضِعًا إِصْبَعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ لَهُ جُؤَارٌ إِلَى اللَّهِ بِالتَّلْبِيَةِ، مَارًّا بِهَذَا الْوَادِي**»[2].

و(جُؤَارٌ) أي: صوت ونداء[3]. فهذا دليل على أن موسى حج بيت الله الحرام، والنبي ﷺ في هذا الحديث يجعلني أتخيل هذا الرجل العظيم؛ وهو مارٌّ بهذا الوادي يُلبي.

* * * * *

(1) موضع خلف أمج إلى مكة بميل، ينظر: «الروض المعطار» (ص604).

(2) «صحيح مسلم» (166).

(3) رَفْع الصَّوت والاسْتِغاثة. ينظر: «النهاية» (1/ 232).

كيف أتكيَّف؟

ممَّا تعلَّمته من موسى التكيُّف، ومعناه القدرة على العطاء في الظروف المختلفة، فبعض الناس يكون وجوده أو إشراقه أو عمله أو عطاؤه مرهونًا بشروط لابد أن تتوافر، كأن يكون مرهونًا بحالة الغنى والسَّعة والرفاهية.

وبعض الناس يكون لديه قدرة على أن يعيش ويعطي في مختلف الظروف؛ في الصحة والمرض، في الغنى والفقر، في القوة والضعف، في السفر والإقامة، وفي مختلف مراحل العمر، وهذا فارق كبير جدًّا؛ لأن الفرق بين إنسان وإنسان هو التعلُّم، والتكيف نمط مخصوص من التعلم، يجعل الإنسان ذا قدرة على العيش في ظروف مختلفة، كأن يعيش في الجبل، أو في الصحراء، أو في بيئة بحرية، ولديه القدرة على التعامل معها جميعًا.

وهذا ليس بالشيء السهل؛ لأن بعض الناس تعود على نوع خاص من الحياة إذا لم يجده لا يستمتع، مثل نوع من الطعام إذا لم يجده لا يستمتع بالطعام، ومثل الجو فبعض الناس لا يتحمل البرودة الشديدة، أو لا يتحمل الحرارة.

رجلٌ في كلِّ الحالات:

كان موسى -عليه السلام- يتميز بقدرة هائلة على التكيُّف، وهي من لطف الله تعالى فقد قال: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾، ومن مظاهر قدرته على التكيُّف:

- أنَّه عاش في قصر فرعون مدة، وتعود على العيش المنعم في كل شيء؛ في النوم والملبس والمأكل والمشرب، وقضى في هذا فترة من شبابه. ولما اضطر إلى الخروج من المدينة، ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾، وبين عشية وضحاها خرج من المدينة هربًا، وهذا التغير الشديد لا ينجح معه إلا الشخص المتكيف؛ لأنه سوف يمضي في الصحراء، وفي الحر الشديد، وفي الغربة، فماذا سيأكل من تعود على نمط معين من الأكل لا يجده، ويقال إن موسى كان يأكل ورق الشجر في طريقه. وكان متعودًا على الأمن، والآن هو يعيش حالة خوف، والخائف حاله كما يقول الشاعر:

لَقَد خِفتُ حَتَّى لَو تَمُرُّ حَمامَةٌ ... لَقُلتُ عَدُوٌّ أَو طَليعَةُ مَعشَرِ
وَخِفتُ خَليلي ذا الصَّفاءِ وَرابَني ... وَقيلَ فُلانٌ أَو فُلانَةُ فَاحذَرِ
فَأَصبَحتُ كَالوَحشِيِّ يَتبَعُ ما خَلا ... وَيَترُكُ مَأنوسَ البِلادِ الْمُدَعثِرِ
إِذا قيلَ خَيرٌ قُلتُ هَذي خَديعَةٌ ... وَإِنْ قيلَ شَرٌّ قُلتُ حَقٌّ فَشَمِّرِ[1]

أي؛ إذا خوَّفه واحدٌ زاد خوفًا، وإذا أمّنه واحدٌ قال: لا، هذا يخدعني.

- ومن مظاهر تكيف موسى أيضًا أنه انتقل إلى مدينة جديدة وهي "مدين"، وقد اختارها بناءً على معطيات؛ لأن موسى -عليه السلام- ذو

(1) ينظر: «الحيوان» (400/6)، و«التذكرة الحمدونية» (200/9).

قرار سريع ومدروس، وقدرةٍ على التحليل غير عادية، وهذا من أسباب التكيُّف، فليس أمر موسى اعتباطيًّا ولكنه سريع، وقدرته على التحليل هائلة، فتلقائيًّا اختار مدين؛ لأنها لا تخضع لحكم الفراعنة، بل كان يحكمها الكنعانيون، والكنعانيون أشداء أقوياء وذوو منعة، وعلاقاتهم مع الفراعنة ليست حسنة، مما يعني استحالة تسليمه لهم، تحت أي ذريعة أو اتفاقية. وأيضًا له علاقة تاريخية بمدين؛ لأنها بلد أجداده آل إبراهيم -عليه السلام- وآل شعيب، ولاوي الذي هو جد موسى -عليه السلام- فهو اختيار موفق.

- ومن مظاهر التكيف أيضًا أن موسى عاش في هذه المدينة سنوات يشتغل بالرعي، وتحوّل من رجل في قصر فرعون إلى راعي غنم، وأخلص لهذه المهنة، وتتعجب من إخلاص موسى لهذه المهمة وانتمائه إليها، فعندما كلمه ربه سأله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾، -وهو أعلم- ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾، انتماء للغنم والرعي، فهذا من التكيف في شخصية موسى عليه السلام.

- ومن مظاهر التكيُّف، تكيُّفه في المرحلة الرابعة من حياته وهي مرحلة الجهاد؛ جهاد الدعوة وجهاد البلاغ، فتجد موسى في هذه المرحلة رجلًا جديرًا بهذا العمل، فهو يقوم بالواجب، ويواجه فرعون ويصبر.

- ومن مظاهر تكيُّفه أنه خرج مع بني إسرائيل للتيه للصحراء، وقد أعده الله -تعالى- لهذا التكيُّف، حيث اعتاد الصحراء من رحلته السابقة، وصار ابن الصحراء، قطعها ذهابًا وإيابًا، وعاش فيها ورعى غنمه، ثم

جلس مع قومه أربعين سنة في هذه الصحراء، وكانت شخصيته ونفسيته وروحه وجسده معتادين على تحمُّل مثل هذه المتاعب والمشاق.

ركُوبُ الأطباق:

فمن الضروري لكل إنسان ناجح أن يتكيَّف؛ لأن الحياة لا تستقر على حالٍ، فالله - سبحانه وتعالى- يقول: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، وقال عمر بن الخطاب: «**اخْشَوْشِنُوا فإنَّ النِّعمةَ لا تدومُ**»[1]. فليس هناك ضمان استقرار لأحد، فقد يواجه الإنسان أي ظرف من الظروف في أي وقت.

وكل الناجحين عبر التاريخ وعلى رأسهم رسل الله وأنبياؤه، يبتليهم الله - سبحانه وتعالى- بمختلف الأحوال؛ ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، والحسنات والسيئات معناهما، بالخير وبالشر، وأحيانًا نفتنهم بالمال وأحيانًا بالفقر، وأحيانًا نفتنهم بالكثرة وأحيانًا بالقلة، وأحيانًا نبتليهم بالصحة وأحيانًا بالمرض، فالإنسان الذي لم يتعوّد احتمال الظروف المختلفة لا ينجح، ومن هذا قول الشاعر:

مَنْ لم يُقَدْ ويُدسّ في خَيْشُومِهِ رَهْجُ الخميسِ فلنْ يقودَ خميسَا

ومعناه أن الإنسان الذي لم يتعود أن يكون جنديًّا مطيعًا وفردًا في مجموعة لا يستطيع أن يكون قائدًا.

---

(1) هذا هو المشهور على الألسنة؛ وإنما أخرجه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (339/5)، وفي «شرح معاني الآثار» (275/4)؛ بلفظ: «اخشوشنوا، واخشوشبوا، واخلولقوا، وتمعددوا، كأنكم معد، وإياي والتنعم وزي العجم».

وقد يسافر الإنسان لمكان مبتعثًا أو تاجرًا أو موظفًا، ويذهب ويعود وكأنه كان محفوظًا في وعاء، لم يتأثر بالناس حوله ولم يتأثروا به، وهذه حالة نقص؛ لأن الإنسان الناجح يقتبس الخير من الناس ويستفيد من الآخرين، ويكتسب خبرة التعامل مع بيئات شتى وفئات شتى، ومن معرفة عادات الناس.

ولو أردت أن أفرق بين اثنين في أي مجال كان، أحدهما بدأ وواصل ونجح، والآخر بدأ وواصل بعض الشيء ثم انقطع، فالفرق بينهما هو الفارق بين شخص عنده قدرة على التكيّف بحيث يستطيع أن يتجاوز العقبات، ويصبر عليها، ويعيش مع الظروف المختلفة، وآخر ربما كان لديه حماس في البداية، وكان يظن أن الدنيا كلها خضراء، وبمجرد أن يواجه عقبة أو وضعًا صعبًا لا يتكيف.

وَحَالاتُ الزَّمانِ عَليكَ شَتَّى ... وَحَالُكَ واحِدٌ في كُلِّ حَالِ[1]

* * * * *

(1) ينظر: «الوساطة بين المتنبي وخصومه» (ص345)، و«شرح معاني شعر المتنبي» (195/1).

آنَسْتُ نَارًا

قال سبحانه: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾، كل شيء مكتوب بأدق التفاصيل. حنَّ موسى إلى مصر، وإلى أخبار الأم، وأخبار الأخت مريم التي كان لها فضل في ربطه بأمه، وأخبار هارون، وأخبار قومه بني إسرائيل، ذكريات كبيرة وحنين إلى العودة.

ولكن موسى كان يخاف؛ لأن عليه حكمًا بالقتل منذ الطفولة؛ لما كان فرعون يذبح ذكور بني إسرائيل عامًا ويتركهم عامًا، وهو مولود في السنة التي يذبح فيها، فهو في نظر الفراعنة كان يجب أن يكون مقتولًا، فضلًا عن أنه مطلوب بسبب قتله للقبطي، ورغم ذلك رجع موسى لمصر.

ولعل سبب رجوعه اعتقاده أن الأوضاع تغيرت، والتاريخ يؤكد أن الأوضاع تغيرت بمعنى أن فرعون الذي كان يطلب موسى مات، وهو على قول جمهور المؤرخين «**رمسيس الثاني**»، وسياقات القرآن الكريم تدل على أن فرعون الذي قابله موسى بعدما رجع ليس هو فرعون الذي عاش موسى في قصره وإنما هو ابنه، بمعنى أن فرعون الحالي كان زميلا لموسى، وعاش معه، وربما في المدة

نفسها تقريبًا، وربما أكبر منه قليلًا أو أصغر قليلًا، واسمه «منفتاح»، وهناك أدلة على ذلك وإن كانت ليست جزمًا.

فمن الأدلة أنه قال لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾، لم يتكلم عن نفسه وإنما تكلم عن العائلة وطريقة تعامل فرعون السابق مع موسى، ولم يكن فيها الأسلوب نفسه الذي كان يتعامل به فرعون الأول، وواضح أن فرعون الثاني هذا كان أقل كفاءة وأضعف شخصية مع طغيانه بطبيعة الحال.

فربما هذه الأسباب جعلت موسى يعود وهو غير متأكد مما سيواجهه، فهو عائدٌ مضطرًا إلى أمه وأخيه وأخته وأسرته وجماعته، فمن غير المعقول أن يبقى إلى الأبد مفصولًا عنهم، لا يعرف عنهم شيئًا، و﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، فالله -سبحانه وتعالى- كان بقدره يوجه موسى -عليه السلام- ويسوق روحه بالحنين إلى العودة.

رحلة العودة:

بعد أن انتهت المدة حزم موسى أمتعته للسفر ومعه زوجته، ولك أن تتخيلها وهي تودع أمها وتودع أختها الثانية التي كانت معها قبل عشر سنوات عند الماء، تودع عمرًا سابقًا وعالمًا لها في كل بقعة فيه ذكريات جميلة، والبنت أشد حنينًا وإلفًا للبيت الذي عاشت فيه، وللأب وللأسرة وللأماكن، حتى لغنمها وإبلها والأشياء التي حولها، ولا شك أن لحظة الوداع كانت لحظة دموع وبكاء، ولا شك أن موسى تأثر بذلك.

والروايات تقول إن زوجته كانت حاملا، وأدركها المخاض في ذلك الليل في الصحراء، لا أم ولا قابلة ولا معين ولا حارس إلا الله -سبحانه، والظاهر أنه لم تكن معه زوجته فقط، إذ يقول الله تعالى: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾، فموسى لم يقل: امكثي، بل قال: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ﴾، وهذا خطاب للجمع كما هو معروف في لغة العرب، وهذا هو الظاهر، وقد يقال للمرأة لكن هذا بعيد، والأقرب عندي هو صواب الروايات التي تقول إن موسى كان عنده ولدان منها: «**جُرْشُوم**»، و«**إليعاذِر**».

وقوله تعالى عن العصا: ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾، يدل على أن معه غنم في تلك السفرة؛ لأنه عبر بالفعل المضارع: ﴿وَأَهُشُّ﴾، والهش أن يضرب الشجر الذي لا تصل إليه الغنم فيسقط الورق فتأكله الغنم، ويسمى عند العرب الاختباط من الخبط.

وأدرك المخاض زوجته بالقرب من جبل الطور بسيناء، واسمه في التوراة جبل «حوريب»، فصار في حال صعب، ضَلّ الطريقَ، والبردُ شديد والريح عاصف وزوجته تعاني آلام المخاض، فجعله الله تعالى يرى نارًا فقال: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾، لم يقل رأيت بل قال آنست؛ لأن وجود النار يدل على وجود ناس عندها، وللنار في الصحراء شأن عظيم صوره الأعشى في قوله:

لَعَمـرِي لَقد لاحَـتْ عُيُـونٌ كَثيرَةٌ ... إلى ضَـوءِ نَـارٍ في يَفَـاعٍ تُحَـرَّقُ
تُشَـبّ لمَقْرُورَيْـــنِ يَصْطَلِيَانِهَـا ... وَبَاتَ عَلى النّارِ النّـدَى وَالْمُحَلَّقُ(1)

---

(1) «ديوان الأعشى» (ص223).

فذهب إليها من أجل أن يأتي بقبس منها إلى أهله، أو يسأل من حولها عن الطريق، ولكنه وجد أعظم مما تصور، وجد شجرةً خضراء وفيها نار، وهذا شيء عجيب. واختلف في هذه الشجرة؛ فذهب بعضهم إلى أنها شجرة العليق، وهي شجرة لا تثمر، موجودة في منطقة سانت كاترين بالذات، وبعض المرشدين السياحيين يحددون شجرة بعينها وهذا محال، وبعضهم قال شجرة العوسج، والله تعالى أعلم.

ولكني أميل إلى أن هذه الشجرة هي شجرة الزيتون؛ لأن الزيتون شجرة مباركة، مذكورة في القرآن في أكثر من موضع وفي سيناء بالذات، قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾، وهو الطور الذي كلم الله تعالى موسى عنده، ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾، فشجرة الزيتون مباركة في زيتها وفي ثمرها وفي أغصانها، وكلها مباركة. وفي سورة النور ما يؤكد ذلك ويجعلنا نميل إليه؛ ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾؛ كأنها نجم لمع في السماء، ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾؛ أي أنها شرقية غربية، أي تضربها الشمس عند طلوعها وعند غروبها، فهي أفضل ما يكون من الشجر، ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾، الزيت ذاته يكاد يضيء من دون أن يوقد، ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾؛ نور الزيت ونور النار، ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، فهذا السياق يجعلنا نميل إلى القول بأن الشجرة التي سمع موسى عندها كلام الله -سبحانه وتعالى- هي شجرة الزيتون.

وعندها كلم الله موسى، وتردد اسمه خمس مرات، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾، ﴿قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ﴾، ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾. خمس مرات يسمع موسى اسمه من ربه فأي تكريم هذا!

وعند النار كان اختيار الله تعالى له: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، وفضّله الله تعالى على علم على العالمين وعلى كثير من الأنبياء والمرسلين، فسمع كلام ربه سبحانه. وعلينا ألَّا نبحث عن كيفية السماع، ودعنا نتخيل الموقف بجماليته وهيبته، فقد وجدت كثيرًا من المفسرين والمؤولين يقولون: سمعَ مفهومَ كلام الله، أو خاطبته الشجرة، أو سمع كلام جبريل، وأنا أقول كما قال الشاعر:

دعْها سماويَّةً تمضِي علَى مَهَلٍ ... لا تُفْسِدَنْهَا برأيٍ منكَ مخذولِ[1]

لا تفسد هذه الجمالية للمشهد بتأويل وتفسير وسؤال وجدل؛ لأن هذا شأن علوي ليس من حقنا أن نتدخل فيه، دعنا نستمتع بالجمالية وبالروعة وبالإبهار حينما نتلو القرآن، فهذا القرآن يقص علينا خبر ذاك النداء: ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

* * * * *

(1) ينظر: «شرح نهج البلاغة» (116/17)، و«شرح لامية العجم» (ص158).

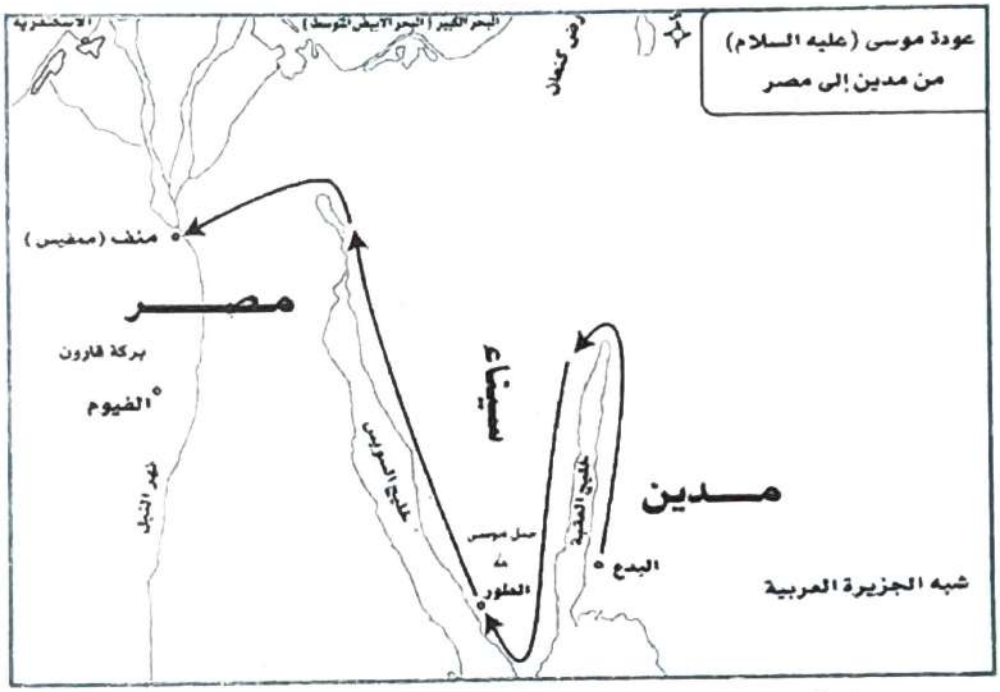

خارطة مسار عودة موسى عليه السلام من مدين إلى مصر

وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ

تميز موسى -عليه السلام- بأن الله تعالى كلّمه، فلُقِّب بالكليم، وقد كلمه الله تعالى مرتين: المرة الأولى بالرسالة لما رأى النار وجاءها فسمع صوتًا يكلمه، فقال: من أنت؟ قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾، والمرة الأخرى عندما وقّت الله تعالى له أربعين ليلة، وذهب للقاء ربه ومعه سبعون رجلا من قومه.

فكان موسى -عليه السلام- يسمع ربه عز وجل بعلم ضروري قطعي يقول له: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾.

وسبب اختيار الله تعالى لموسى يظهر من قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾.

وهذا اصطفاء من الله واختيار: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾، ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾.

ولذلك اختاره الله تعالى وكان عند الله وجيهًا، وجعله بهذه المنزلة العظيمة، فهو الثالث في تاريخ البشرية؛ محمد ﷺ ثم إبراهيم ثم موسى عليهما السلام.

اللقاء الأول:

في المرة الأولى بعثه الله تعالى بالتوحيد والرسالة، وأمره: ﴿فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾؛ فأمره بعبادته وبالصلاة ليذكر الله بها، وأن يقيمها إذا ذكرها، كما قال النبي ﷺ: «**مَنْ نَسِي صَلاَةً فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا لاَ كَفَّارَةَ لَهَا إِلاَّ ذَلِكَ**»[1]. وقرأ قول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾. إذن: الصلاة تقام لذكر الله، والذي لا يقيم الصلاة ولا يذكر الله ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ﴾.

ويذكره بالساعة: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾، يخفي الله تعالى وقت الساعة فتأتي بغتة، ﴿لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗ﴾، ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾، مشهد عظيم؛ في ذلك الليل ينير لموسى الطريق؛ لأن موسى كان يتلمّس الطريق ويطلب الهداية من الله، ويتواضع قلبه لربه، والله -سبحانه وتعالى- كافأه بهذه المكافأة العظيمة، فلم يبعث له جبريل أو غيره بالنبوة، وإنما خاطبه كفاحًا.

وسأل ربنا سبحانه موسى: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾، فلأن المشهد مهيب مهَّد الله تعالى نفسية موسى للألفة، فسأله عن العصا التي يمسك بها، ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ﴾، وهنا دخل موسى في المشهد متحدثًا: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾، فقال له ربه سبحانه: ﴿أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾، فرماها كما أمره ربه سبحانه، ﴿فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ﴾، ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾.

---

(1) أخرجه البخاري (597)، ومسلم (684) من حديث أنس رضي الله عنه.

موسى راعي غنم عاش في الصحراء طويلًا ويعرف الحيّات وعايشها وقتل الكثير منها بالتأكيد، وهو رجل قوي رابط الجأش شجاع، لكن المشهد الذي شاهده ليس مألوفًا؛ ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾، كانت عصا في يده فإذا بها حية تهتز بقوة فاغرة فاها، وورد أن لها قوائم، وهو شيء غير مألوف، ولذلك تراجع موسى و﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾. مع أن المشهد يدعو إلى الحضور والبقاء، لكن هذا التصرف ردة فعل بشرية طبيعية.

فقال له الله تعالى: ﴿خُذْهَا﴾؛ ضع يدك في فمها مكان المحجن، ﴿وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾؛ رباطة الجأش عادت له؛ لأن الله أمره، ففعل موسى، فتحولت العصا إلى ما كانت عليه من قبل، فجعل الله -سبحانه وتعالى- هذه آية على نبوته ورسالته، وأعطاه الآية الثانية وهي بياض اليد: ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾.

وأعطاه الله -سبحانه وتعالى- آيةً ثالثةً وجدتها في سورة القصص، ولا أظنها وردت في موضع آخر في القرآن الكريم، وهي قول الله تعالى لموسى: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ﴾، والجناح الصدر أو الجنب، فكأن معنى الآية إذا أصابك خوف من الحية أو من فرعون أو من السحرة أو من أيٍّ كان فالعلاج هو أن تضم يدك إلى صدرك من الخوف فيزول عنك.

اللقاء الثاني:

اللقاء الثاني لموسى لما واعده ربه أربعين ليلة في جبل الطور، وجاء هو وقومه ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ﴾، فكلمه ربه وخاطبه، ودخل موسى في الغمام وسمع صوت الله، وناجى ربه، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ﴾، فالسبعون رجلا

الذين كانوا مع موسى طلبوا منه أن يُريهم الله سبحانه وأن ينظروا إليه، فرفع الله الجبل فوقهم كأنه ظُلَّةٌ، وظنوا أنه واقع بهم، فكيف يطلبون هذا الطلب ويتجرؤون على الله سبحانه، فتابوا إلى الله وأنابوا، قال الله تعالى: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، واختُص موسى بأن يسمى كليم الله؛ لأن الله تعالى كلَّمه مباشرة.

ويوم القيامة عندما يأتي الناس طلبًا للشفاعة يأتون لموسى -عليه السلام- ويقولون له: أنت موسى كليم الله، اختارك الله برسالاته وبكلامه واصطفاك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، ألا ترى ما بلغنا؟! فيقول لهم موسى: لست بذاك، ويعتذر بذنب قتل القبطي[1]، فالمؤمن قد يقع منه الخطأ لكن لا يمر الخطأ بسلام، فهذا موسى مات وهو يستذكر ذنبه، وبعث وهو يستذكر ذنبه، ويعتذر عن الشفاعة بسببه.

وقد كلَّف الله موسى بشيئين:

الأول: أن يذهب إلى فرعون وهامان وقارون، لدعوتهم للإيمان بالله كما قال: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾.

والثاني: تحرير بني إسرائيل من فرعون، فقد قال لفرعون: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾؛ خلّ بيني وبين بني إسرائيل؛ لأدعوهم إلى الله، فموسى رسول أيضًا إلى بني إسرائيل ليدعوهم إلى الله تعالى، بل هو أصالةً رسول لبني إسرائيل، ومأمور بدعوة فرعون وهامان وقارون وملئه إلى الإيمان، وإلى أن يتركوا تعذيب بني إسرائيل، ويسمحوا له بأن يمارس الدعوة في أوساطهم.

---

(1) أخرجه البخاري (4712)، ومسلم (194) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

على قدرٍ:

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ كل شيء محسوب في قصة موسى؛ ميلاد موسى، وزنه في الطفولة، نوعية المادة التي صنع منها التابوت، مستوى المد والجزر في البحر آنذاك، مستوى اندفاع الريح، وقت خروج امرأة فرعون ووصيفاتها للفرجة أو للسباحة، وقت مجيء فرعون، نظرة امرأة فرعون...، أدق التفاصيل محسوبة، وينبغي أن ندرك أن الأشياء تكون شيئًا فشيئًا بناء يتكامل على قدرٍ، ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾، في تلك الليلة، كان الوقت، الجو، الظلام، البرد، حال موسى، وضع زوجته، المخاض، فقدان الطريق، كل شيء مقدّر.

ومن خلال قراءة قصة موسى أصبح عندي يقظة للأحداث التي تقع أمامي، ولا أنظر إليها على أنها خاضعة لفعل الناس فقط، فأقول: الناس قرروا كذا، وأرادوا كذا، سواء كانوا حكومات أو جماعات أو أحزابًا أو أفرادا، خاصة أو عامة، أو عدوًّا أو صديقًا، هذا كله يجب ألا يجعلك تغفل عن القدر الكامن في كل شيء، ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾.

وأتعلَّم من موسى المناجاة، فصحيح أن الله تعالى اصطفى موسى نجيًّا، لكن الله تعالى جعل المناجاة حقًّا لكل من يعبده بحق، فقد روى النبي ﷺ لنا عن ربه -عز وجل- «قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبدي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾. قَالَ مَجَّدَنِي عَبْدِي -وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي- فَإِذَا قَالَ:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾. قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[1].

هذه مناجاة، فهل يمكن للعبد وهو يقرأ الفاتحة، أن يستشعر أن الله يقول: كذا وكذا؟ ألم يقل لنا رسول الله ﷺ عن الإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»[2]. والعبد ينّزه ربه عن أن يراه في الدنيا ولكن يكون عند الإنسان استحضار لذلك.

* * * * *

(1) أخرجه مسلم (395) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(2) أخرجه البخاري (50)، ومسلم (9) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (8) من حديث عمر رضي الله عنه.

هَارُون أخي

لما خاطب موسى ربه، وسمع النداء والتكليف بالرسالة، خطر في باله فكرة غير عادية، فقال من فوره: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي﴾؛ دعاء مفصّل مطوّل، فموسى -عليه السلام- سعيد أنه يخاطب ربه فاسترسل في الكلام: ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي﴾ قوّني به، ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ أمر الرسالة والدعوة، ﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا﴾، فرد الله -سبحانه وتعالى- عليه بالإجابة: ﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾.

وقال موسى أيضًا في الموضع الثاني: ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓ﴾، يعني مؤازرًا ومساعدًا، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، قال له ربه: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾ ؛ نجعل لكما قوة وهيبة، ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾.

أخاكَ أخاكَ إنَّ مَنْ لا أخَا لهُ ... كسَاعٍ إلى الهَيْجَا بغيرِ سِلاحِ

وإنَّ ابنَ عمِّ المرْءِ فاعلَمْ جَنَاحُهُ ... وهلْ ينهضُ البازي بغيرِ جَناحِ[1]

(1) ينظر: «عيون الأخبار» (4/3)، و«شرح أبيات سيبويه» للسيرافي (88/1)، و«المنتحل» (ص218).

ابن أمِّ:

نلاحظ مما سبق أن العلاقة بين موسى وهارون علاقة حب، وعلاقة حب الخير له وأن يجعله معه، ولم ينفع أحد أخاه مثلما نفع موسى هارون، وجعله مساعدًا له في مهمات كثيرة.

حتى في اللحظات التي ربما يعاتب فيها موسى هارون يرجع بسرعة، ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي ﴾؛ ويشركه معه في دعائه: ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾، ويحرص عليه كما في قصة القرية، إذ قال موسى بعد ما أيس من قومه يخاطب ربه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾، وهكذا تكون الأُخُوَّة.

وعادة ما تكون في الأُخوَّة حالات من التوجس، وتناوش الطفولة، والتنافس على اللعبة، وعلى حضن الأم، وعلى اهتمام الأب، وعلى التفوق، وعلى كلمة المدح والثناء، وتمر فيها حالات ضرب وحالات تعيير، وفيها حالات سب عند الأطفال، ونكبر ونستطيع أن نخفي هذه المشاعر، لكن هل قلوبنا طيبة على إخواننا؟ هل نحب لهم الخير؟ نتفقدهم، نتعاهدهم؟ وعلى وجه الخصوص البنات الأخوات؟ فالبنت تحتاج إلى العطف وإلى الحب والحنان والرعاية والهدية والذكر الطيب والزيارة أكثر من غيرها.

هي أشياءُ لا تُشترى:

ذكرياتُ الطفولةِ بينَ أخيكَ وبينكَ

حِسُّكما -فجأةً- بالرجولةِ

هذا الحياءُ الذي يكبِتُ الشَّوقَ.. حينَ تعانقُهُ

الصَّمتُ - مبتسمَيْنِ - لتأنيبِ أُمِّكما

وكأنَّكما

ما تزالانِ طفلينِ!

تلك الطُّمأنينةُ الأبديَّةُ بينَكما

أنَّ سيفانِ سيفَكَ..

صوتانِ صوتَكَ

أنَّك إنْ مِتَّ:

للبيتِ ربٌّ

وللطِّفل أبْ[1]

وهارون وُلد قبل موسى فهو أكبر منه، ويختلف عن موسى تمامًا، فهو رجل حليم صبور واسع الصدر، ذو قدرة على الاحتواء، وقد رآه النبي ﷺ في رحلة الإسراء والمعراج في السماء الخامسة بينما كان موسى في السماء السادسة، وذكر صفته البدنية، فكان كهلًا عظيم العُثْنُون واللحية، جميلًا، لم أرَ كهلًا أو شيخًا أجمل منه، وسمَّاه المحبَّب في قومه[2].

---

(1) «الأعمال الكاملة لأمل دنقل» (ص324-325).

(2) أخرجه ابن إسحاق -كما في «سيرة ابن هشام» (1/403-407)-، وعبد الرزاق في تفسيره (2/282-286) من طريق أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. ولم يسم ابن إسحاق: أبا هارون العبدي؛ وإنما قال: حدثني من لا أتهم. قال الذهبي في «تاريخ الإسلام» (1/640): «هذا حديث غريب عجيب... وبسياق مثل هذا الحديث صار أبو هارون متروكا». والحديث عند البخاري (3207)، ومسلم (164) من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه، وليس فيه هذا الوصف.

وكان بنو إسرائيل يحبون هارون أكثر من موسى، مع أن موسى هو القائد ولكنه رجل ذو قوة وشدة، وذو مواقف حاسمة.

وإذا وُجد التكامل في الدعوة بين ذي المواقف وذي العلاقات الاجتماعية مثلما حصل مع موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام يكون أفيد للدعوة، حيث يسد بعضهم ثغرة بعض، ويدافع بعضهم عن بعض، فموسى يقوم بدور لا يقوم به هارون، وهارون يقوم بدور لا يقوم به موسى، وهارون أقرب إلى الناس يعرف ظروفهم ويصبر عليهم، وموسى أقرب إلى القيادة للمستقبل وإلى ما يجب أن يكون عليه الأمر، ويرسم الطريق ويُحدد البوصلة.

وكان لهارون نسلٌ، ففي حديث صحيح أن صفية بنت حُيَي بن أخطب زوج النبي ﷺ قالت لها حفصة مرة: يا يهودية، فبكت صفية، ورآها النبي ﷺ وسألها ما يبكيك؟ فقالت: إن حفصة عيّرتني، وقالت: يا يهودية. فقال النبي لحفصة: **(اتق الله يا حفصة. فنهاها عن مثل هذا الكلام، ثم لقّن صفية كيف ترد، فقال قولي لها: أنا بنت نبي. يعني جدها هارون، وعمي نبي؛ يعني موسى، وأنا تحت نبي؛ زوجها نبي، فبأي شيء تَفْضُلونني؟)**[1] فصارت هي أفضل من الجميع. ونتعلم من رسول الله في هذا الموقف، كيف نحول بعض الأشياء السلبية إلى معانٍ إيجابية.

وقد مات هارون قبل موسى في التيه، ودفنه موسى وصلى عليه، ولكن عددًا من الدوائر الفاسدة داخل بني إسرائيل حاولت أن تتهم موسى بأنه هو الذي قتل هارون، وكثيرًا ما تجد في الكتب المحرفة حرصًا على تشويه صور الأنبياء،

(1) أخرجه الترمذي (3894)، وابن حبان (7211) من حديث أنس رضي الله عنه، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه».

فتتحدث عن نبي قتل أخاه، وتتحدث عن نبي اعتدى على بنته، وتتحدث عن نبي شرب الخمر، والعياذ بالله، وهذا انعكس على ثقافة هؤلاء الناس من بني إسرائيل، بحيث أصبحت الجريمة مقنَّنة؛ لأن القائل منهم يقول: إذا كان هذا حال الصفوة وأولي العزم السابقين فكيف بمن دونهم؟

بينما تجد في القرآن الكريم الحديث عن الأنبياء حديثًا شفافًا رائعًا جميلًا، وفي الوقت نفسه هو حديث واقعي؛ فقد حدثنا الله -سبحانه وتعالى- عن قصة يوسف مع إخوته وهي تختلف عن قصة موسى وهارون، فإخوة يوسف تآمروا عليه وقالوا: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾، وألقوه في غيابة الجب، وهم الذين جاؤوا ﴿أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾، وهم الذين قالوا لأبيهم: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾، إلى آخر القصة المذكورة.

إذاً: حديث القرآن حديث واقعي لا يتجاهل الصور والأنماط السلبية لكنه لا يجعلها الأصل ولا يبالغ في تسليط الضوء عليها، وفي النهاية تكلم عن إخوة يوسف حديثًا إيجابيًّا؛ حيث اعترفوا ليوسف: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾، وقالوا لأبيهم: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾.

* * * * *

من فوق الأنهارِ إلى باطِنِها

أمامَ الطَّاغية

أُرسِل موسى وهارون لفرعون: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وفي آية أخرى أرسلا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ﴾، وهذا درس في أن معظم شعوب الأرض تحتاج إلى مخاطبة عُليا، فهي تتأثر بقيادتها سواء أكانت القيادة سياسية، أو كانت قيادة إعلامية أو علمية، أو اجتماعية أو فنية... إلخ، وبهداية هذه القيادة تهتدي الشعوب.

فكانت الدعوة في الأصل موجهة إلى فرعون وهامان وقارون؛ فرعون ووزيره والمسؤول المالي عنده، ذهب موسى وهارون لفرعون وطلبا اللقاء، وفرعون يعرفهم؛ لأن موسى تربى في حجر «**رمسيس الثاني**»، والذي يحكم مصر الآن هو ابنه «منفتاح بن رمسيس الثاني»، على قول أكثر المؤرخين؛ ولذلك قال لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾، ولم يقل عندنا.

المواجهة:

واجه موسى -عليه السلام- فرعون وقال له: إني رسول رب العالمين، والله تعالى خاطبني وأمرني بالدعوة إلى التوحيد بالبلاغ، فأراد فرعون أن يذكّره

بماضيه قبل النبوة وقال له: كنت عندنا أمس ولم تكن صاحب رسالة! وقتلت نفسًا! واعترف موسى بخطئه ولم يجد غضاضة في أن يقول: نعم قتلت نفسًا، ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾، ولكن الله تعالى أحدث التغيير بعد ذلك، ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، فأنا الآن رسول ونبي، وعندي كلمة الله -سبحانه وتعالى- وأريد أن أبلغها لك.

دار بينهما حوار سمع فيه فرعون كلمة رب العالمين، وفرعون يعتقد أنه ابن فرعون الإله، ويجري في عرقه دم إلهي، كان هذا معتقدهم، ولذلك قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾، فلما سمع من موسى كلمة رب العالمين، سأله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، فقال موسى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، وهذه دعوة للتدبر وللتأمل والنظر في ملكوت السماوات والأرض، وهكذا فعل إبراهيم الخليل حين دعا النمرود بالطريقة ذاتها، قال: (**إذا كان عندكم استعداد لليقين والإيمان فانظروا في ملكوت السماوات والأرض الذي يدلكم على الله**).

وآيات الله لا تحتاج إلى مختبَر أو عالم متخصص. فالأعرابي في صحرائه، والمزارع في حقله، والإنسان البسيط في عقله ومعلوماته يستطيع أن يهتدي إلى الله سبحانه وتعالى بالتأمل والنظر فيما حوله من الملكوت أو في النفس، فأول ما بدأ موسى بـ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، تدخل فرعون ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾، أشرك فرعون الحاضرين معه في الحوار، وحاول أن يقنعهم بأن هذا الكلام فيه غرابة.

فقال موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾، وبذلك نقله موسى -عليه

السلام- إلى قضية أخرى، وهي أن الله تعالى هو رب البشر، ربك ورب أبيك، فليس هناك رب من البشر؛ لا أنت ولا أبوك ولا جدك، وإنما الله تعالى هو رب العالمين جميعًا، والبشر أمام الله تعالى سواسية وكلهم مخلوقون من الأرض، ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾، فلابد أن تعترف بأنك من تراب وأنك بشر مثل غيرك، ليس عندك أي خصائص تميزك عن غيرك، وبذلك سيزول عنك الطغيان والعدوان على الناس واعتقاد الألوهية والاستكبار على البشر، والنظر إلى الآخرين من رعيتك ومواطنيك وكأنهم عبيد لك.

صعب الأمر على فرعون، ولذلك بادر بقوله: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾. وأنا أتلمس من الحوار أن فرعون فعلًا ليس بمستوى والده في الطغيان، فوالده حكم حتى وصل إلى مناطق في أوروبا والهند والشام وقسّم مصر إلى ست وثلاثين ولاية، وبنى فيها مسلات كبيرة، وقيل إنه لم يُهزم قط، بينما هذا الابن واضح أنه في منطقه الضعف؛ قال ردًّا على موسى: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، يقول رسول على سبيل السخرية ولكنه لا يعتقد أنه رسول.

لم يكن موسى مشغولًا بالدفاع عن نفسه ولا بتبرير مواقفه ولا برد الشتائم، وإنما كان مشغولا بتبليغ دعوته، ولذلك استمر وقال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، (الْمَشْرِقِ): مشرق الشمس، (وَالْمَغْرِبِ): مغربها، وعلى هذا يكون المعنى (وَمَا بَيْنَهُمَا) من الزمن، يعني الغروب والشروق والضحى والظهيرة والعصر فالله تعالى رب الزمان، ويمكن أن يكون المشرق والمغرب مكان الشروق ومكان الغروب، فيكون المعنى أن الله تعالى رب الأرض كلها مشرقها ومغربها وما بينهما. أخبره أن الله تعالى هو رب الزمان ورب المكان، وهذه حجة نبوية إبراهيمية واضحة.

وقال موسى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وهذا رد على قول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾؛ قال موسى: ما دمتم تتهمون غيركم بالجنون فأنتم إذن تعقلون، فاعقلوا أن الله تعالى هو رب المشرق والمغرب وما بينهما.

قال له فرعون: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾، فنجد أن فرعون إما أن يسب أو يهدد أو يتهم بالجنون، أو يستعيد سيرة موسى في الماضي، إلى غير ذلك من الوسائل التي فيها هروب من المحاورة والجدل بالعقل.

ومن الأشياء التي قالها فرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾، يسأل موسى ما وضْع آبائنا وأجدادنا؟ فأجاب موسى: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾، كأن فرعون أراد من موسى أن يقول: القرون الأولى كانوا في ضلال وهم الآن في عذاب. فيستثير الناس على موسى ليرفضوا دعوته، وإن قال: القرون الأولى كانوا على خير. قال: نحن على ما كانوا عليه، لكن موسى -عليه السلام- ابتعد عن التشغيب والتشعيب، ووضعه أمام نقطة محددة وواضحة، ولذلك قال في الجواب: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾.

انتهت المحاورة برفض فرعون الدعوة رغم أن موسى قدّم له الحجج وأراه الآيات: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾؛ نكال الحياة الآخرة ونكال الحياة الدنيا.

إن الطاغية بشر يخاف ويضعف ويتردد ولكنه يستقوي بجنوده، ولذلك قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾، وفرعون

خاف من موسى، والدليل أنه قال لمستشاريه: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾، فقد عبّر بالخوف، وحاول أن يظهر أنه حريص على دين الناس وعلى انتظام أمورهم وعلى استقامتهم، ولكن الله تعالى وصف فرعون بأنه هو المفسد: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

ويقول العلماء في هذه الآية: أصبح فرعون واعظًا وخائفًا على دين الناس، وعلى حياتهم وعلى صلاحهم وساعيًا في الخير، فقال عن موسى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾.

وكان فرعون يتخذ مسجونين تخويفًا وردعًا وتهديدًا، قال فرعون: ﴿لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾، وهذا معناه أنه يملك قائمة طويلة من المسجونين، ويتخذ مجموعة من الناس وسيلة إيضاح؛ حتى يرتدع غيرهم بهم ويتوقفوا عن مثل هذا العمل.

- ومن الدروس المستفادة: أهمية الوعظ واستخدام المفردات المؤثرة التي تخاطب ضمائر الناس، وتوظيف هذه الألفاظ والمفردات توظيفًا حسنًا لتؤثر فيهم.
- ومن الدروس: أن تأثير الإعلام شديد، فالآلة الإعلامية الضخمة تنشر الضلال والباطل وقلب الحقائق، تمامًا كما يفعل السحرة.

حُرِّيَّةُ بني إسرائيل:

طلب موسى من فرعون أمرين: الإيمان بالله، ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾، وأن يترك له بني إسرائيل، ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَ﴾، خلّ بيني وبين بني إسرائيل.

كان لب دعوة موسى وجوهرها أن يتركه فرعون يدعو بني إسرائيل ويوجههم إلى الله تعالى، وسيترتب على هذا أن يشعر بنو إسرائيل بثقل الأغلال والقيود التي كانت على أعناقهم وعلى أيديهم في زمن فرعون.

والغريب أن هذه الدعوة قال بها كثير من الأنبياء؛ فشعيب -عليه السلام- قال: ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾، اتركونا فترة حتى يحكم الله.

والنبي ﷺ قال عن قريش لما دعاهم ورفضوا: «مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ، فَإِنْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَهُمْ وَافِرُونَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا، قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ»[1]، فرفضوا.

فقد طلب موسى من فرعون أن يدعه حرًّا مع بني إسرائيل، وأن يرسل بني إسرائيل، أي يخفف من القيود والأثقال التي كانت عليهم، وشعيب -عليه السلام- طلب ذلك، والنبي ﷺ طلب ذلك.

ولكن الطاغية أخوف ما يخاف من منح الحرية للناس، فهو يعد إعطاء الحرية نوعًا من الفساد وتغيير الدين، والفوضى؛ ويقلب الحقائق ويحول الظلم إلى عدالة، وتتحول الجريمة إلى تقوى وطهر، ويتحول التقي المؤمن إلى إرهابي، ويزيد أثرها عندما يكون الناس قابلين لترويج ذلك، فتصبح القضية شائكة، وتتطلب قدرة إعلامية ووعيًا من الناس للتفريق بين الحق والباطل.

(1) أخرجه أحمد (18910) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

تسعُ آياتٍ

الآيات جمع آية، وهناك ثلاثة أنواع من الآيات: آيات الله المنزلة، والآيات الكونية، والآيات بمعنى المعجزات التي يبعثها الله -سبحانه وتعالى- مع الأنبياء والرسل، وقد بعث الله -سبحانه وتعالى- مع موسى تسع آيات، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾، وقال: ﴿فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾، فما هي الآيات التسع؟

قال الله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾، الطوفان هو الماء الذي يجتاحهم سواء كان من البحر أو من المطر الشديد، ﴿وَٱلْجَرَادَ ﴾، وهو الحشرة الصغيرة المعروفة التي تهاجر في جماعات ضخمة وتأكل الزروع وكل أخضر، وتضر ضررًا كبيرًا، ﴿وَٱلْقُمَّلَ ﴾ وهو نوع من القُراض يمتص الدم ويؤذي الإنسان والبهائم، ﴿وَٱلضَّفَادِعَ ﴾ والضفدع حيوان معروف، وانتشرت هذه الضفادع في مياههم وفي بيوتهم وآذتهم، ﴿وَٱلدَّمَ ﴾ معناه أن المياه تحولت إلى دم أحمر، ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾ قوله: ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ كأن كل واحدة بينها وبين الأخرى مدة، وفي الآية الأخرى قال الله -سبحانه

وتعالى-: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾، كل واحدة أعظم من أختها التي كانت قبلها، فهذه خمس آيات.

والآية السادسة هي عصا موسى التي ألقاها، ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾، والآية السابعة هي اليد، وهي أن يُدخل يده في جيبه، والجيب هو فتحة الصدر ثم يُخرجها فإذا هي ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾، ليس فيها برص أو مرض وإنما هي بيضاء كأنها مصباح مضيء.

ومن الآيات قول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، والفرق بين السنين والنقص من الثمرات أن السنين عادة ما تطلق على الجدب وعدم نزول المطر في المراعي، أما النقص من الثمرات فالغالب أن هذا في أهل القرى والمزارع، حيث نقصت ثمراتهم بأمراض سلطها الله عليها، فهذه الآيات التسع التي بعثها الله -سبحانه وتعالى- إلى فرعون وقومه.

والرجس أيضًا من الآيات -والله أعلم- والأقرب أن الرجس هو الطاعون، حيث جاء في السنة النبوية ما يدل على أن الطاعون يسمى رجسًا، قال النبي ﷺ عنه: «إنَّه رِجْسٌ بُعِث على بعضِ الأُمَمِ»[1].

غَدْرُ فرعون:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ﴾ أي: على الفراعنة، ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾، الآن استيقظ ضميرهم بعض الشيء، وأقروا بأن

(1) أخرجه البخاري (3473)، ومسلم (2218) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

لموسى ربًّا يدعوه، ولم يقولوا: الله؛ لأنهم يعتقدون أنه من الممكن أن يكون إله لبني إسرائيل غير آلهتهم، فكان عندهم الاعتقاد بأنه يوجد آلهة خاصة بأقوام.

وهذا الطاعون نزل على القبط ولم يصب بني إسرائيل، وانتشرت عدواه، وفي ليلة من الليالي أرِق فرعون مما يحدث، فدعا موسى وهارون وقال: اذهبا أنتما وقومكما بني إسرائيل واعبدوا ربكم وباركوني وادعو ربكم لي، ورد هذا في التوراة، ويصدِّقه ما جاء في القرآن: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، فسوف نخلي بينك وبين الإسرائيليين، وأيضًا في سورة الزخرف: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ﴾، فهناك رسالة من فرعون وقومه لموسى بأنهم مستعدون لإطلاق سراح بني إسرائيل، بشرط أن يدعو الله بذهاب الطاعون.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾، دعا موسى ربه، ورفع الطاعون، فغدروا بالوعد، وأدى هذا إلى تذمر الناس، وتعاطفهم مع موسى، وميلهم إلى صدقه، فاضطر فرعون إلى خطاب رئاسي، ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾؛ ألا تنظرون إلى ملكي، الذي يشمل مصر كلها، وهذه الأنهار التي تجري من تحتي، ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ﴾، كيف تؤمنون بهذا الرجل وأنا خير منه، وبهذا الخطاب أضاع آخر فرصة لهم بأن يؤمنوا بموسى عليه السلام.

أفلا يتدبرون!

علمني موسى الإيمان بهذه الآيات المعجزات؛ لأنها من المعرفة ومن العلم: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. فالناس مقصرون في تأمل الآيات والمعجزات التي جعلها الله تعالى مع الأنبياء يومًا من الأيام، بل مقصرون في التدبر في الآيات الكونية الدائمة وهم يشاهدون الكون ويشاهدون سُنن الله -سبحانه وتعالى- فيما حولهم، لكنهم مقصرون في تدبرها.

في كل يوم تشرق الشمس، هذا الجِرم الهائل محمول بقدرة الله من المشرق إلى المغرب، وكل يوم نرى القمر، ونرى البحر، ويرى البشر آيات الله في أدق أحوالهم، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾، العين الباصرة ترى قدرة الله، ورحمة الله، وحكمة الله، وعلم الله، وألوهية الله، وربوبية الله، في أضعف الأشياء، تراها في النملة، والحشرة، والشجرة حبها وورقها، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾.

آيات بينات نشاهدها، ولكن الاعتياد عليها قلل من تأثيرها، ولذلك ينبغي على الإنسان أن يجدد نظر عينيه إليها، ويجدد في قلبه الإحساس بها.

والذي يُنكر الآيات المعجزات والغيوب، فإن مشكلته هي نقص العلم؛ لأنه حصر نفسه في دائرة ضيقة من علوم الماديات، وفي داخل هذه الماديات ضيق أفق أيضًا؛ لأن العلم المادي يتجدد ويتغير، فقبل نظرية «**أينشتاين**» النسبية،

كان الناس يجهلون كثيرًا مما كشفته هذه النظرية، وسوف توجد نظريات جديدة تهدم بعض ما قبلها أو تضيف إليها، أوتكتشف اكتشافات جديدة.

لذلك حينما تسمع الكلام عن الغيبيات كالملائكة، والجن، لا بد أن تؤمن بها؛ لأنها جاءت من مصدر أهم من العلم نفسه وهو الوحي، فإن العلم قد ينقض نفسه وقد يتجدد، لكن الوحي مصدر موثوق به للمعرفة يجب أن نتعامل معه من هذا المنطلق، والعلم يزيدنا إيمانًا بالله وحده، ولا يمكن أن يربك إيماننا أو ينقضه.

* * * * *

يَوْمُ الزِّينَةِ

اتهم فرعونُ موسى بأنه يريد أن يخرجهم من أرضهم: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ﴾، أي أنه ذو هدف سياسي وهو إبعاد الفراعنة وطردهم من السلطة ومن السيطرة على بني إسرائيل، فكان رد فرعون على الآيات التي جاء بها موسى -عليه السلام-: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾، ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾.

فاختار موسى يوم الزينة، ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾، وهو عيد معروف عند المصريين، وهو الوقت الذي يرسل النيل فيه الزائد من مياهه عبر الترع والقنوات إلى الأراضي البعيدة، وذكر بعض العلماء أنه يوافق تقريبًا الخامس عشر من سبتمبر من كل عام، واختار موسى هذا الموعد بالذات؛ لأنه يوم عيد، واختار وقت الضحى لأنه أشد أوقات هذا اليوم حشدًا، فموسى أراد أن يكون هذا الاجتماع في حشد كبير، وهذا من شدة ثقته بما يريد أن يقدمه.

وكانت موافقة فرعون: ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾، ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾. ليس ساحر فقط؛ لأن السحرة بالآلاف، كل نَجْع أو قرية فيها سحرة، لكنه اختار عِلية السحرة، وحضّر مجموعة منهم، بلغ عددهم عند بعض العلماء سبعين ألف ساحر، وبعضهم يقول سبعمائة، وبعضهم قال سبعون، وهم رؤوس السحرة، والأمر فيه جانب استعراضي.

وكان موسى بمفرده مقابل هذا العدد الهائل من السحرة، وجاء السحرة متزينين لابسين جلود النمور، وجلس الفراعنة على جلود الأسود، وسط حشد الجنود، وشهود الناس، وصخب العامة من مختلف الأعمار وجَلَبَتهم، مؤيدين لفرعون، ويقولون: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾، فكان عندهم يقين بأن الغلبة للسحرة.

كل هؤلاء مقابل موسى -عليه السلام- ومعه أخوه هارون، ومعه العصا، ومعية الله تعالى، وعندما ترى هذا المشهد تحس كم ألقى الله تعالى على موسى من القوة ورباطة الجأْش في موقف صعب فعلًا.

وقبل أن يبدأ موسى -عليه السلام- المباراة مع السحرة خاطبهم ودار كلام بينه وبين رؤوسهم؛ لأنه لا يقدر على مخاطبتهم كلهم، ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾؛ يهلككم بعذاب يستأصل شأفتكم، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴾، كانت علامات الصدق واضحة على وجه موسى وعلى لغته وعلى كلامه، قال الله سبحانه: ﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾، إذًا قبل المباراة كان هناك نوع من الاختلاف والتنازع يظهر من قول الله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴾، فلعلهم تهامسوا فيما بينهم عما يمكن أن يحدث إن

انهزموا، وربما صار عند بعضهم نوع من التخوف أو التراجع، والتساؤل عن حالهم إذا انتصر موسى وكان أقوى منهم؟ ماذا لو أن هذه العصا التي تحولت إلى حية أكثر من مرة تغلّبت عليهم؟ ولعل النجوى كانت عن أفضلية تأجيل المبارزة، لكن الأمور لا تقبل التراجع.

ثم خيَّر السحرة موسى في الذي يبدأ، فقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾، ليظهروا أنهم مسيطرون على الموقف، فلا يهمهم من يبدأ لفرط ثقتهم، ولعلهم يفضلون أن يبدؤوا هم؛ لأنه هناك عدة ميزات للأولية: فيها استعراض للقوة وفرصة للفوز، وتحصيل الانطباع الأولي، وتصفيق الجماهير وكأنه سجَّل الهدف الأول، ونزل الميدان أولًا، واختار موسى أن يكونوا هم البادئين.

ووصف الله تعالى حال موسى في هذا الموقف المهيب بقوله: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ﴾، فموسى جرَّب العصا عند الشجرة وجرَّبها أمام فرعون، وعنده إيمان مطلق بربه سبحانه حتى لو لم تقع تجربة سابقة، ومع ذلك أوجس خيفة أمام هذا الموقف بهيلمانه وبضخامته وبالصياح والجماهير والناس والعدد الهائل من السحرة واستعداد كل ساحر منهم بمجموعة من العصي والحبال والحيل والألاعيب السحرية التي يتقنونها ويبرعون فيها، ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ﴾، لم يعلن الخوف لكنه أوجس في داخله، فطمأنه الله تعالى بوحي فوري قائلا: ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾؛ لك الغلبة.

وخوف موسى ليس شكًّا في وعد الله، لكن ربما ظن أن الله قد يمتحن إيمانه ويمتحن الناس لفترة، وقد يكون النصر مؤجّلا وليس هذا اليوم، وقد

يقع في بال الإنسان احتمالات معينة لا تخرج عن الإرادة والقدرة الإلهية والوفاء بالوعد الإلهي، مثلما وعد الله بدخول البيت الحرام، فقد تدخله العام أو تدخله العام القادم كل ذلك وارد، ويحتمله النص، ولم يترك الله موسى لهواجسه كثيرًا، بل جاءه وحي فوري: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾، وقد قيل له من قبل أنه سيلقي هذه العصا فتأفكهم.

لكنه كان بحاجة إلى وحي فوري في ذهول الموقف، يذكِّره بما مضى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾، ألقِها فورًا، مثلما قال له عند البحر: ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾.

﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾، وبدت هذه العِصِي في نظر الناس حيَّاتٍ كبارًا تمشي، بعضها فوق بعض، والناس يهربون منها، والصياح والهتاف يملأ المكان، فألقى موسى عصاه فتحوَّلت حيَّة عظيمة، ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾. وفتحت فاها وابتلعت كل ما صنعه السَّحرة، فكانت صدق موعود الله، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾، ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾.

إِذَا جَاءَ مُوسَى وَأَلْقَى العَصَا فَقَدْ بَطَلَ السِّحْرُ وَالسَّاحِرُ

أمَّا موقف السحرة مما شاهدوا فكما قال تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾، لم يقل: (فسجد السحرة)، بل: ﴿أُلْقِيَ﴾؛ كأنهم أُلقوا بالقوة؛ لأن الذي شاهدوه أعلمهم يقينًا أن ما عند موسى ليس من جنس سحرهم، هو شيء آخر لا ينتمي إلى العلم الذي كانوا يسمونه سحرًا، وإنما هو أمر إلهي رباني آخر، ولذلك أُلقُوا ساجدين لربهم يقولون: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾.

وَاتَّخَذْنَا الأَسْمَاءَ شَتَّى فَلَمَّا جَاءَ مُوسَى انْتَهَتْ لَكَ الأَسْمَاءُ
حَجَّنَا فِي الزَّمَانِ سِحْرًا بِسِحْرٍ وَاطْمَأَنَّتْ إِلَى العَصَا السُّعَدَاءُ

الأسحار شتَّى:

السحر أنواع كثيرة؛ وسحر قوم فرعون كان من النوع الذي يسحر أعين المشاهدين: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾، وفي آية أخرى قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾، والراجح أنهم وضعوا في هذه العصي نوعًا من المعدن مثل الزئبق، وهو إذا لامسته الحرارة يتحرك ويتذبذب، وهذا لا يزال موجودًا عند السحرة إلى اليوم، وهذا نوع من السحر.

وهناك نوع ثانٍ من السحر، وهو خفة اليد، بالقيام بحركات خفية لا يدركها المشاهدون، وينبهرون بها.

والنوع الثالث من السحر هو تأثير الجن والشياطين على بعض النفوس بالصرف أو العطف، وبالحب أو الكره.

ولكن مدار السحر المذكور في قصة موسى على التخييل، وعلى سحر عيون الناس؛ ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾.

سِحْرُ الإعلام:

لو ربطنا سحر التخييل هذا بواقع الإعلام اليوم، الذي يعتمد على العين، وعلى الصورة والمشاهدة لوجدنا تشابهًا بين سحر التخييل وسحر الإعلام، فتستخدم ثقافة الصورة للخداع في الحرب، لإثبات هزيمة أو لإثبات الطغيان والعدوان.

والحياة تكاد تكون ميدان صراع، آلتُها هي الصورة والكاميرا واللقطة والدراما، وأصبحت تشكّل نوعًا من سحر عيون الناس والتأثير على عقولهم، ربما يقصر بعضهم التأثير في برامج مباشرة للسحر والسحرة ولقراءة المستقبل والكف والفنجان والأبراج، لكن الأمر أبعد من ذلك، فحتى وأنت تشاهد نشرة الأخبار أو تقرأ تحليلًا أو تسمع كلامًا، قد يكون مصحوبًا بكلمات فيها قدر من الحيادية، لكنها في حقيقتها نوع من سحر تخييل مخالف للواقع.

هديَّة السَّحرة:

أعطى فرعون أحكام إعدام جماعية وتمثيل بالأجساد: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ﴾، فتوعّد السحرة بأن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف؛ يده اليمنى ورجله اليسرى، تفننًا في القتل والتعذيب.

وهذا التهديد ابتداءً كان من أجل تحجيم الأثر؛ لأن الجماهير التي اجتمعت يوم الزينة صُدمت بهذا الموقف، وجاء على خلاف ما كانت تتوقع، وهذا زاد من منسوب الإيمان عند بني إسرائيل، وربما جعل بعض الفراعنة في حالة تذبذب وتردد، وسبق لهم أن حصل لهم مثل هذا في موضوع الرِّجز: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ ﴾.

ولذلك كان لا بد لفرعون من استعادة هيبته ومركزيته في الحدث، عن طريق عتابهم على أنهم آمنوا به قبل أن يستأذنوا منه، وبالتهديد والوعيد: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ﴾، ومن أجل أن يبرر هذا الوعيد اتهمهم بالخيانة العظمى للوطن، وأنهم تواطؤوا مع موسى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ ﴾.

وبعض السلف ذكر أنه نفّذ الوعيد وكان هؤلاء السحرة في أول النهار كفرة فجرة، وفي آخر النهار شهداء بررة[1]، ولم يرد في القرآن الكريم أكثر من ذكر وعيد فرعون، والأقرب أنه إذا كان السحرة سبعين كما تقول بعض الروايات[2] فيكون فرعون نفذ الوعيد فيهم كلهم؛ من أجل استقرار حكمه وسلطته، والوعيد أصبح هو الوسيلة الوحيدة، وإذا كان السحرة سبعين ألفًا كما تقول بعض الروايات[3] فقد يكون قتل على الأقل رؤوس السحرة الذين عدهم مسؤولين عن النتيجة هذه، والله أعلم بذلك.

* * * * *

(1) ينظر: «تفسير ابن جرير» (10/364-365).

(2) المصدر السابق (10/355).

(3) المصدر السابق (16/107).

رجل يسعى

تتداخل مع قصة موسى أكثر من قصة، ودائمًا ما تجد في سيرة موسى -عليه السلام-، وفي مصر على وجه الخصوص قصة الشخص المتفرد، سواء أكان رجلا أو امرأة، وسأقترب من هذه الشخصيات المتفردة فيما يلي.

رجل يكتم إيمانه:

رجلٌ مؤمن من آل فرعون، حكى الله تعالى عنه: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ ﴾، هذا رجل من الملأ؛ ربما عضو في مجلس شورى فرعون، قريب يُسمع صوته ويصل صوته لفرعون، وهو مؤمن كما وصفه الله -سبحانه وتعالى- ومن آل فرعون، وأيضًا وصفه الله تعالى بالرجولة: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ ﴾؛ وليس المقصود أنه مجرد رجل ذَكَر، وإنما المقصود أنه ذو قوة ومبادرة وإنجاز ورغبة في العمل وتميُّز وتفرُّد، هذا من معاني قوله تعالى: ﴿رَجُلٌ﴾.

كما وصفه الله -سبحانه وتعالى- بأنه مؤمن ويكتم إيمانه، إذن: هو صاحب نفوذ، قريب منهم، ومضطر لأن يخفي إيمانه، ربما بدافع الخوف، وربما يريد أن يحافظ على الدور الذي يؤديه.

فهذا الرجل حاول أن يوصل رسالة يمكن أن تُخفف الشر، فقال لفرعون وقومه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾؛ أتقتلون رجلا لمجرد إعلانه بالإيمان بإله غير فرعون، ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾؛ لا يغركم استعلاؤكم في الدنيا، فهذا لن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا، ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾؛ وقد جاء بالبراهين والحجج التي تثبت صدقه وأنه مرسل من قبل الله، وهو يشير إلى الآيات التي أرسل بها موسى، ثم يعطيهم حجة منطقية مقنعة: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾، إذا كان كاذبًا يتحمل وزر فعله، ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾، وإن كان صادقًا فبالتأكيد سوف يصيبكم بعضٌ مما يعدكم به، مثلما جرى في الآيات السابقة من الرجز، والسنين، ونقص الثمرات، واستخدم لفظ «بعض»؛ لأنه لا يعدهم بكل الأشياء وإنما يعدهم ببعضها على سبيل التخيير.

يحاول الرجل أن يثني فرعون ومن حوله عن الإقدام على قتل موسى، وواضح أن الجلسة كانت مخصصة لبحث موضوع قتل موسى -عليه السلام-، فهو يحاول أن يُقدّم رأيًا مختلفًا بهذه الطريقة اللبقة، ثم يجد أنه مضطر إلى أن يكشف عن إيمانه، فقال: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾، قال فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، فقال الرجل الذي آمن: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، ليس السبيل هو ما عند فرعون، ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾، تذكير لهم بزيف الدنيا وحقيقة

الآخرة، إلى قوله: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ ﴾؛ فوَّض الأمر إلى الله بعد أن استنفد ما في وسعه من بيان ودعوة.

ولكنهم لم يؤمنوا لكلامه ومكروا به، ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾، فالرجل نفسه أصبح هدفًا؛ لأن الأنظمة الطاغية المستبدة الباطشة الدموية دائمًا ليس لها أصدقاء، ومن لم يكن معهم فهو ضدهم.

ولم تذكر الآيات مصير هذا الرجل، والأقرب أنه خرج مع بني إسرائيل؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾؛ شارك بني إسرائيل في الخروج الكبير، وهذا -إن صحَّ- دليل على أن بني إسرائيل لما خرجوا خرج معهم المؤمنون حتى من غير بني إسرائيل مثل هذا الرجل من القبط، ومثل السامري الذي يقال إنه ليس إسرائيليًّا -والله تعالى أعلم-، فخرج المؤمنون معه جميعًا حتى لو كانوا من غير بني إسرائيل.

وقصة أبي بكر - رضي الله عنه- شبيهة بهذا، عندما أراد عقبة ابن أبي مُعيط أن يخنق الرسول ﷺ فجاء أبو بكر، وانكبَّ على النبي ﷺ يحميه ويصيح: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾[1]، فكان موقف أبي بكر مثل موقف مؤمن آل فرعون، بل أقوى وأفضل؛ لأن ذلك الرجل يكتم إيمانه وأبو بكر الصِّدِّيق -رضي الله عنه- كان يُعلن إيمانه ويُجاهر به، ولذا فرقوا شعره حتى تمرطت غدائره.

(1) أخرجه البخاري (3678) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

رجلان لا رجل:

يثور سؤال مؤدَّاه: هل هذا الرجل المؤمن هو نفسه الرجل الذي نصحه في قصة قتل القبطي، وقال عنه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾؟ والأقرب أنه ليس هو؛ لأسباب منها:

الأول: لم يذكر الله تعالى أنه مؤمن، وإنما قال: ﴿رَجُلٌ﴾ فقط، ولم يذكر الله تعالى أنه من آل فرعون، ولذلك ذهب أكثر العلماء أنه من بني إسرائيل، وعلى أي حال فهذا الرجل من الدائرة الضيقة حول فرعون، والأقرب أنه حضر جلسة لقتل موسى، ولكنها جلسة غير الجلسة الثانية؛ لأن مؤامرة القتل هذه كانت مبكرة بسبب قتل القبطي، قبل بعثة موسى.

أما الرجل المؤمن فكان مجيئُه في محاولة قتل أخرى بعدما نُبئ موسى وجاء بالرسالة وواجه فرعون وتعاظم أمره وخطط الفراعنة حينئذ لقتله، فالتوقيت مختلف.

الثاني: أنه منفرد، يعمل وحده وليس عنده بوصلة ولا مشروع، وليس قادرًا على إحداث تغيير ما، ولكنه فقط يوصل رسالة بقدر المستطاع لحماية موسى، يشبه تمامًا قصة الخضر -عليه السلام- في حماية أصحاب السفينة وفي حماية الغلامين.

الثالث: أن هذا الرجل جاء من أقصى المدينة، والأطراف منازل الأشراف كما يقولون[1]، مما يدل على أن الفراعنة والكبراء كانوا يسكنون في طرف المدينة؛ لأن الخدمات تصلهم ويأخذون من خيرات طرف

(1) ينظر: «كتاب بغداد» لابن طيفور (ص117)، و«التمثيل والمحاضرة» (ص147).

المدينة السَّعة، والانبساط، والزراعات، والسلامة من الضوضاء، فهذا الرجل ربما كان وزيرًا أو مستشارًا، ولكنه ذو إيمان، ومبادرة، وإخلاص وصدق، لكن ليس عنده بوصلة أو مشروع أو علاقات، وغاية ما يستطيع فعله إيصال رسالة تحذير.

وأيًّا ما كان فإنك تجد في قصة موسى وفي مصر خاصة هذا الرجل الذي يتسم بالمبادرة، ويسعى جاهدًا لتحذير موسى، حريصًا عليه وعلى سلامته، رغم انتمائه للنخبة حول فرعون.

مؤمنة القصر:

امرأة فرعون آسية بنت مزاحم ضرب الله بها مثلا في الإيمان: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، عزفت عن القصور والدور والجمال والزينة والكبرياء واختارت الله ورسوله، ولم تُرد قصر فرعون وإنما سألت ربها أن يبني لها عنده بيتًا في الجنة، وأن ينجيها من فرعون وعمله، وعَدَّت فرعون ورطة وليس فرصة، وهذا درس عظيم في قدرة الإنسان على التجرُّد والتخلي عن أقرب قريب حينما يستدعي الأمر ذلك؛ حينما يكون إيمانه بالله وحرصه على عقيدته يستدعي ذلك.

وكان أثرها على موسى واضحًا؛ في حضانته ورعايته والمحافظة عليه، وهذا دور يُذكر وجزاها الله عليه خيرًا، لكن أتوقع أن أولادها تأثروا لأنهم تربوا في حضانتها، هي لا تستطيع أن تقوم بعمل كبير في وجود فرعون وتسلطه، ولكن لابد أنها ألقت إليهم ببعض الأشياء الطيبة والإيجابية.

ماشطةٌ مؤمنةٌ:

وردت قصة الماشطة في السنة النبوية، وفيها عبرة كبيرة، وهي مؤثرة جدًّا، **ففي قصة الإسراء والمعراج ذكر النبي ﷺ أنه في السماء شم رائحة طيبة، فقال: ما هذه الرائحة يا جبريل؟ قال له: هذه رائحة ماشطة بنت فرعون وأولادها. قال له: ما قصتها؟ فقال له: إن هذه المرأة -وقد تكون إسرائيلية- كانت تمشط بنت فرعون، فسقط المِدْرَى[1] من يدها؛ فقالت: بسم الله، فالتفتت البنت وسألتها: الله ربك هو والدي الفرعون؟ قالت: لا؛ ربي وربك ورب أبيك الله رب العالمين[2].**

هذه مؤمنة بموسى وهي من جنود موسى المجهولين المستخْفِين، لكن الإيمان يأبى إلا أن يُظهر نفسه، فقالت لها: هل أُخبر والدي؟ قالت: أخبريه. فأخبرت البنت والدها الفرعون أن الماشطة تقول كذا وكذا، فأحضرها فرعون وأقرَّت أمامه، فأراد فرعون أن يعذبها بالطريقة التي تعوّد الطغاة أن يعذبوا بها مخالفيهم، ولم يطق فكرة أن ماشطة خادمة مستعبَدة ترفض عبادته وتختار لها دينًا بذاتها، فهو لا يراها بشرًا، ولا يرى لها حق الاختيار.

وقتلها بطريقة متبعة عندهم وهي أن يأتوا ببقرة[3] من نحاس ثم يوقدون عليها النار حتى تحمر، ويحشد الجنود ضاربين الأرض بأقدامهم ويرقصون

---

(1) هو حديدة يسوى بها شعر الرأس.

(2) أخرجه أحمد (2821)، والحاكم (496/2) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(3) بقرة: قدر كبير واسعة، فسماها بقرة من التبقر، وهو التوسع، أو قدر يسع بقرة تطبخ فيه. «النهاية» (145/1).

صاخبين، وخلال هذه الأثناء يقومون بدفع الضحية في وسط القدر النحاسي المتقد، وهو يصرخ، وهم فرحون مغتبطون، يعدون هذا أشبه ما يكون بقربان لآلهتهم.

وهكذا فعل فرعون، غير أنه من نذالته جاء بأطفالها أولًا، وصار يرميهم في هذه البقرة في مشهد بشع لا تطيقه النفوس السوية السليمة حتى لو لم تكن على دين، ففُجعت بأولادها أمام ناظريها يتألمون أمامها ثم يحترقون، والنار تشوي أبدانهم ولحمهم وشحمهم وعظامهم، في مشهد لا يطيق الإنسان أن يرى حيوانًا يُفعل به هذا.

كل هذا وهي متجلدة صبورة، فالإيمان يصنع الصبر والجَلَد في النفوس، واحتساب ما عند الله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾، والآخرة الجنة، كما حدث مع آل ياسر وقول الرسول ﷺ: «صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة»[1].

نظرت المرأة المتجلدة لفرعون وقالت له: لي إليك حاجة. قال: ما حاجتك؟ قالت: أن تجمع عظامي وعظام أولادي في قبر واحد. قال: هذا لك. فلما بقي أصغر أطفالها الذي كان رضيعًا، وهموا بأخذه أخذتها رقة عليه، فثبتها الله تعالى به وأنطقه، وقال لها: يا أمي اصبري فإنك على الحق. فتجلّدت وصبرت، فرموه ثم رموها بعده.

أمر مؤلم، وشاهدنا كثيرًا مثل هذه القصص التي تبدو غريبة حينما نتحدث عنها، شاهدناها سلوكا يوميًّا في عدد من البلاد العربية والإسلامية، وأمام مرأى ومسمع من العالم الذي يشجب ويستنكر ويرفض ويدين، ولكنه لا يحرك

(1) أخرجه الحاكم (383/3) من حديث ابن إسحاق؛ مرسلاً. وفي (388/3) من حديث جابر رضي الله عنه، بنحوه، وقال: «صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه».

ساكنًا، وهو بهذا يُعد شريكًا في هذه الجرائم اليومية؛ العدوان على الطفولة، والعدوان على المرأة، والعدوان على الأبرياء، والقتل بالبراميل المتفجرة، والقتل بالصواريخ وبالنيران والحرق.

ورغم هذا الألم لا تنسى الجانب الآخر؛ جانب القوة والاعتزاز بالإيمان والصبر عليه، وجانب الجزاء الوافي من الله تعالى، فقد ذكر لنا الرسول ﷺ أنه عليه الصلاة والسلام وجبريل شموا الرائحة الطيبة في السماوات، رائحة ماشطة بنت فرعون وأولادها.

دورٌ لك:

هذه القصص كلها تحدد دورًا للإنسان حتى حينما يكون منفردًا، فليس أحد عاجزًا عن فعلٍ ما، ويجب أن يفعل الإنسان شيئًا قدر استطاعته، ولا بد أن تكون عنده روح المبادرة، والتفكير السوي، والتقدم عندما يكون عنده إمكانية أو فرصة ولو قليلة، وأن يتحلى بقدر من الشجاعة ولو ليس كبيرًا، ربما لا يكون ما يفعله هو الشيء الذي يغير وجه الأحداث، ولكنه لا يجعل هذا الإنسان مجرد متفرج، أو إنسان يعيش آلامه ويتجرع أحزانه بمفرده، وإنما يعمل شيئًا، ويبدأ ويدع الباقي لرب العالمين.

* * * * *

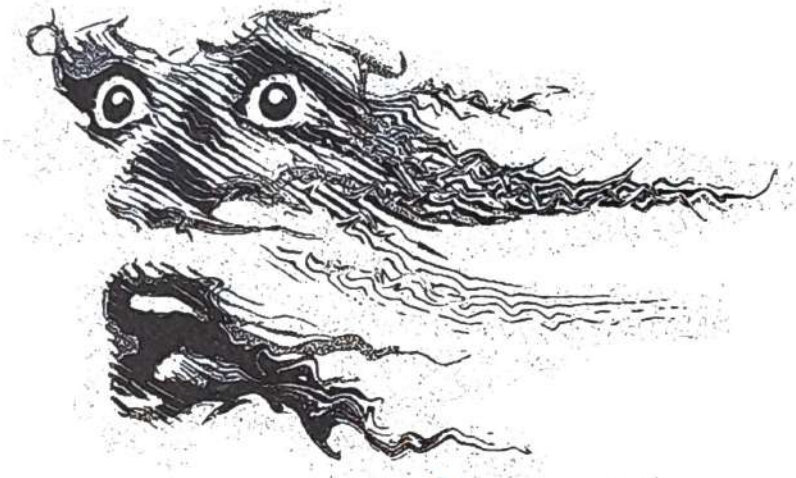

تَشْرِيقَةُ الأَهْوالِ

الخروج الكبير

الخروج الكبير، اسم مهيب يصف خروج بني إسرائيل من مصر ومن حكم فرعون، بعد أن استنفد فرعون كل الوسائل والحيل لمنعهم، ورتّب موسى مع قومه هجرة جماعية لبني إسرائيل وعددهم بين مائتي ألف إلى أربعمائة ألف، رجل وامرأة وطفل وشيخ.

وقائع الخروج:

الذين سيخرجون ليسوا عددًا قليلًا يغادر في وقت قصير قبل أن يشعر بهم أحد، والمسافة التي سيمشونها داخل دولة فرعون ليست قصيرة بل هي طويلة شاسعة، والأمن يتربص بهم؛ لأن عندهم إحساسًا أمنيًّا بأنهم يريدون أن يخرجوا، وهذا جعل المهمة صعبة، ولذلك أمر الله تعالى سيدنا موسى: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا ﴾، بداية الخروج بالليل، فتواعدوا وتجمعوا وخرجوا ليلا، ولم يشعر بهم أمن فرعون إلا متأخرًا، وانطلق خلفهم جيش فرعون عند الشروق، ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾؛ بعدما أشرقت الشمس، ويجوز أن يكون معنى (مُشرقين)؛ ذاهبين إلى جهة الشرق؛ لأن الخروج الكبير كان بعبور بحر

القُلْزُم(البحر الأحمر)، يسيرون صوب البحر، والبحر يموج ولا سبيل لعبوره، ويلتفتون وراءهم فيشاهدون جيش فرعون، يقوده فرعون ذاته، فقد خرج بنفسه، وكان من قبل يقول: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾، وأرسل فرعون في المدائن حاشرين من كل مكان، جمع الجنود كلهم، وخرجوا وراء موسى وقومه، وحرص فرعون على إدراكهم وعدم خروجهم لأمرين:

أولًا: أن هؤلاء القوم إذا خرجوا ربما يشكلون تهديدًا له من الخارج.

ثانيًا: أنه يريد أن يستبقيهم حتى يقوموا بالخدمة والعبودية التي كانوا يقومون بها من قبل.

ذهب فرعون وراء هؤلاء وهو يسير إلى حتفه، ولما اقتربوا من بني إسرائيل ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، أصبح الوضع خطيرا، فالعدو وراءهم والبحر أمامهم وما ثم مخرج، قال موسى: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾؛ حتى موسى ربما لم يكن عنده معرفة بالتفاصيل إلا أنه يعرف أن هذا أمر الله سبحانه، ولن يخالف أمره ولن يُضيّعه: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾؛ في تلك اللحظة: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾.

تعددت أدوار هذه العصا في قصة موسى، فهي العصا التي أمره تعالى أن يلقيها: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾، وأمره أن يلقيها أمام فرعون لتكون آية، وأمره أن يلقيها أمام السحرة فتلقف ما يأفكون، ثم أمره الله تعالى أن يضرب بها البحر: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا

﴿لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾، شُق فيه اثنا عشر طريقًا، كل مجموعة أو قبيلة من بني إسرائيل أو سبط من الأسباط يسلكون طريقًا، والمجموعةُ الأخرى إلى جوارهم، حتى إن بعضهم ينظر إلى بعض، ولما خرجوا جميعًا من البحر التفت موسى بما عرف عنه من قوة وسرعة في القيام بالأفعال، وكأنه يريد أن يضرب البحر، فنهاه الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن ذلك، وقال له: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾؛ اترك البحر مثلما هو ساكنًا هادئًا، ﴿إِنَّهُم جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾، فالله تعالى يريد أن يدخل الجيش كله إلى البحر فلا ينجو منهم أحد، حتى إذا اقتربوا من بني إسرائيل، وكادوا أن يصلوا إليهم أعاد الله تعالى البحر لطبيعته، ﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾، إذ أراد الله أن يكون الغرق على مرأى بني إسرائيل بعدما خرجوا.

فَالبَحْرُ قَدْ عَادَ مِنْ ضَرْبِ العَصَا يَبَسًا ... وَالأَرْضُ قَدْ غَرِقَتْ مِنْ فَوْرِ تَنُّوْرِ
وَإِنَّمَا هُوَ سَيْفُ اللهِ قَلَّدَهُ ... أَقْوَى الهُدَاةِ يَدًا فِي دَفْعِ مَحْذُوْرِ[1]

ولما تيقن فرعون من الغرق وهو «**منفتاح بن رمسيس الثاني**» كما ترجَّح، قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾، فكان رد الله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾، فلفَظ البحر جثته، ويقال إن جسده ليس هو الموجود في المتاحف المصرية، ولكنه موجود في بعض المقابر الفرعونية القديمة، فالله -سبحانه وتعالى- أخرجه؛ ليكون لمن خلفه آية، هذا هو الذي كان يدّعي أنه إله، وهذا الذي تجرأ على الله وعلى عباده وفعل ما فعل:

(1) ينظر: «أعلام مالقة» (ص97)، و«المعجب في تلخيص أخبار المغرب» (ص163).

فعَـلا الدَّهْـرُ فَـوْقَ عَليَـاءِ فِرْعَـو نَ وَهمَّـتْ بُملْكِـهِ الأَرْزاءُ[1]

وبذلك نجَّى الله تعالى طائفة كبيرة من بني إسرائيل؛ لأن طائفة أخرى من بني إسرائيل لم تخرج؛ لارتباطها بمصالحها، وبعلاقاتها، وبأموالها، وبزرعها، وبوظائفها وبأعمالها.. فهؤلاء بقوا في مصر.

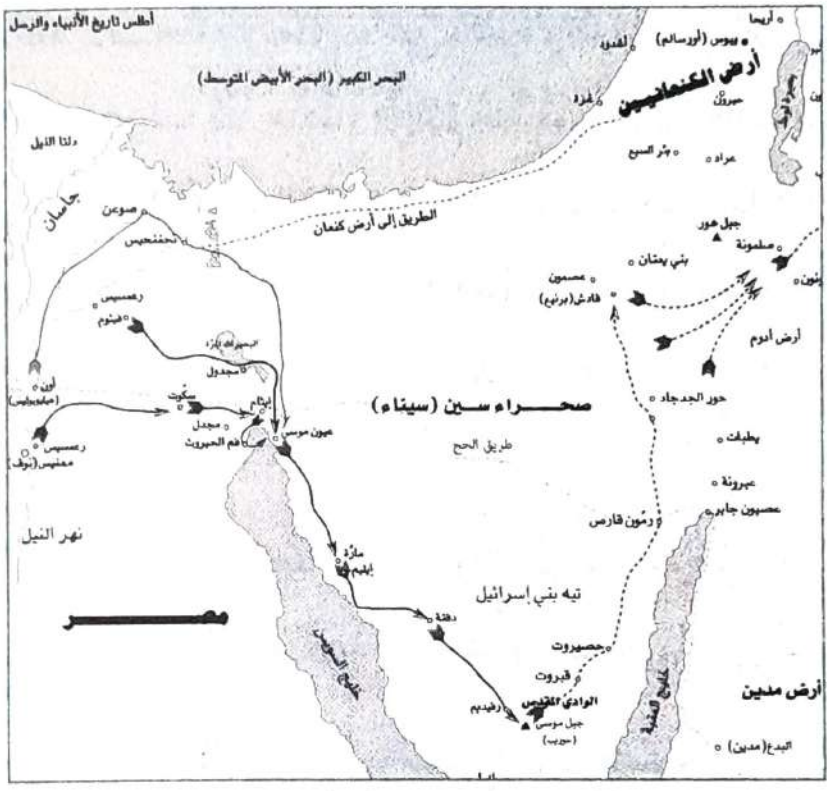

خارطة خروج موسى ببني إسرائيل من مصر

استفزاز فرعون:

قال الله - سبحانه وتعالى- عن فرعون: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴾، واضح أنه ليس المقصود بالاستفزاز إخراجهم من الأرض؛ لأن فرعون لم يكن يريد أن يخرجهم، بل كان يريد أن يستبقيهم ولذلك لحق بهم، إذن معنى الاستفزاز في الآية هو خلق حالة من القلق والخوف،

(1) «الشوقيات» (3/1).

بسبب الضغوط الأمنية، والإجراءات غير العادية التي كان يقوم بها، فأراد أن يستفزهم من الأرض بإجراء مؤقت ولكن الله - سبحانه وتعالى- جعل نتيجة هذا الاستفزاز خروج بني إسرائيل وغرق فرعون، ولذلك عقّب عليه بقوله: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾.

بين هجرة وهجرة:

خروج بني إسرائيل يشبه هجرة النبي ﷺ والمسلمين من مكة إلى المدينة، فقد كانوا عددًا كبيرًا، فخرجوا على مدار سنوات، وكان الدافع إيمانيًّا لكلتا الهجرتين، لكن هناك جوانب اختلاف؛ منها:

- إن المسلمين لم يكونوا من عِرْق واحد، كان فيهم العربي والفارسي والرومي والحبشي.
- ومن الفروقات أنه لم يبق في مكة من المسلمين إلا من لم يستطع الخروج؛ بأن يكون أسيرًا أو محبوسًا، أو عاجزاً، لم يبق منهم أحد بمكة، بينما بقي بعض بني إسرائيل اختيارًا.

هذا الخروج يُعلمنا التضحية في سبيل الله، وأن الانتماء ليس لأرض عاش المرء فيها، وإنما انتماء الإنسان للأرض التي يجد إيمانه فيها، فعلينا أن ندرك أن الوطنية ليست مجرد أغانٍ وأناشيد وشعارات تُرفع وبرامج تُقدم، وإنما حقيقة الوطنية هي صناعة الانتماء في الأجيال، بأن يشعر الناس أن هذا الوطن لهم، وأنه يصدر عنهم، وأنهم ينتمون إليه، وأن هذا الوطن حفيٌّ بهم، حريصٌ على مصالحهم، حريص على إيجاد الحياة الكريمة لهم.

يجب أن يكون الأمر هكذا، لأننا نشاهد اليوم هجرة الكثير من الشباب

المسلم عبر البحر، وكثيرًا ما تكون هجرة (غير مشروعة)، يركب المئات منهم في قارب قريب من العطب، ويهلكون متجهين إلى أوروبا هائمين على وجوههم.

يهاجر هؤلاء؛ لأنهم لم يجدوا الحياة الكريمة، لم يجدوا العمل، لم يجدوا الفرص المتكافئة، لم يجدوا التعليم... ولذلك أعتقد أن في العالم العربي فقراً في الوطنية، يجعل هذه البلاد ليست مكانًا جاذبًا، بل هي في الغالب مكان طارد.

فإنْ تُنصفونَا يالَ مَرْوانَ نقتربْ ... إليكُمْ وإلَّا فَأْذَنُوا بِبِعادِ
فإنَّ لنَا عنكُمْ مرَاحًا ومَذهبًا ... بِعِيْسٍ إِلَى رِيْحِ الفَلاةِ صَوَادي
وفي الأرضِ عنْ ذِي الجَوْرِ مَنْأًى ومذهبٌ ... وكُلُّ بلادٍ أوطنتْ كبلادِي[1]

صورة مومياء منفتاح وهو فرعون موسى الذي أغرق.

(1) ينظر: «ديوان الحماسة» (ص122-123)، و«عيون الأخبار» (341/1)، و«الكامل» للمبرد (78/2).

حديثُ التِّيه

من حديث التِّيه أنه لما خرج بنو إسرائيل من مصر، وبينهم وبينها بحر، وبعد البحر عدو، فلا يمكن الرجوع إليها، وليس أمامهم إلا المضي قُدمًا إلى بيت المقدس، وموسى نبيٌّ يطلب منهم الدخول إلى الأرض المقدسة فيرفضون ويعتذرون: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾، فدعا عليهم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، فقال الله -سبحانه وتعالى- استجابة لدعوة موسى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ يعني الأرض المقدّسة، ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ يعني يرجعون إلى الصحراء يدورون فيها؛ ولذلك ورد أنهم ينامون في مكان فإذا أصبحوا مضوا، ثم إذا حل عليهم الظلام في مكان ناموا، فإذا أصبحوا وجدوا أنفسهم في المكان نفسه الذي كانوا فيه أمس[1]، يدورون في حلقة مفرغة، وهذه عقوبة غريبة، على مدى أربعين سنة يدورون في هذه المنطقة ولا يخرجون منها، وهم جماعة كبيرة جدًّا.

(1) ينظر: «تفسير ابن جرير» (315/8).

تيهٌ قدَريٌّ أم شرعيٌّ:

هل كان التيهُ عقوبةً قدَرية بمعنى أن الله - سبحانه وتعالى- رماهم في الضياع لا يعرفون الطريق ولا يدركون الجغرافية، أم أنه عقوبة شرعية، بمعنى أن الله حرّم عليهم الخروج وأمرهم بالبقاء، وكان رسلهم وأنبياؤهم على هذا حراسًا لهم حتى لا يخرجوا؟

والأقرب عندي أن هذه عقوبة شرعية وعقوبة قدَرية؛ بمعنى أنهم ليس أمامهم خيارات، ما داموا لا يريدون المضي قُدُمًا إلى الأرض المقدسة، وليس بمقدورهم الرجوع إلى أرض مصر وأرض الفراعنة، فما أمامهم إلا أن يكونوا في الصحراء، وقد يكونون استقروا في الصحراء بعض الاستقرار، كما تدل عليه بعض القصص والآثار.

ومدة هذه العقوبة أربعون سنة كانت كافية لانقراض جيل ومجيء جيل جديد، وقام هذا الجيل بفتح «أريحا» وفتح «بيت المقدس» بقيادة يوشع بن نون، ومجموعة من الشباب الراشدين الأقوياء الذين اصطفاهم الله أنبياء واختارهم، فقادوا ونجحوا ونجوا بقومهم.

وورد في بعض الأقوال في التوراة أنه: يذهب شيوخكم ويبقى أطفالكم فيُفتح له. فكان مقصود التيه أن يُطحن ذلك الجيل الذي نشأ على العبودية وعلى الذل والسخرة وعنده تردُّدٌ وإحجامٌ وجبنٌ، فقد تعودوا دائمًا عندما يخطون خطوة أن يلتفتوا يمينا وشمالًا من الخوف، وليس عندهم الإقدام والشجاعة والقوة، فجاء جيل جديد نشأ في هذا التيه على مدى أربعين سنة، وبهؤلاء فُتح بيت المقدس بقيادة يوشع بن نون.

حاجةٌ من تاهَ لا تنقضي:

في التيه كثرت طلبات بني إسرائيل وكثر تذمُّرهم، ففي سورة البقرة حكى الله تعالى عنهم قصة طويلة جدًّا معظمها في التيه، وتتعلق بالمطالب وبخيانة العهود والمواثيق؛ فمن ضمن المطالب قولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾، فالله -سبحانه وتعالى- في التيه أعطاهم نوعًا عظيمًا من الطعام، وهو المنُّ والسَّلوَى، ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾؛ وقيل في تفسير ﴿ٱلْمَنَّ﴾ أنه مثل العسل ينزل كالندى الذي يكون في الصباح على أوراق الأشجار وغيرها، ثم يتحول إلى شيء لذيذ حلو مثل العسل يأخذونه ويأكلونه، وقيل إنه نوع من الخبز[1].

وقيل إن ﴿ٱلْمَنَّ﴾ هو كل شيء من الطعام يأتيهم بلا تعب، مثل قول الرسول ﷺ: «**الْكَمْأَةُ مِنَ الْمَنِّ**»[2].

والكمأة معروفة؛ نبات لذيذ يستخرج من الأرض ويؤكل، يعرفه أهل البادية ويستخرجونه، ويعدونه من الهدايا يتبادلونه مع الحاضرة.

أمَّا السلوى فهو طائر يشبه السَّمَّان[3]، وهو طائر جميل ولذيذ، فأعطاهم الله تعالى هذا الطعام الطيب.

وكانوا يطلبون من موسى الماء؛ فيستسقي الله تعالى لهم: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾؛ هذه العصا العظيمة العجيبة التي جعل الله -سبحانه وتعالى- فيها هذه الأسرار من عهد فرعون إلى السحرة إلى ضرب

---

(1) ينظر: «تفسير ابن جرير» (1/700-704).

(2) أخرجه البخاري (4478)، ومسلم (2049) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.

(3) ينظر: «تفسير ابن جرير» (1/704).

البحر إلى التيه كانت مع موسى، فأمره الله تعالى أن يضرب بها أي حجر، فضرب بها صخرة فنبع منها اثنتا عشرة عينًا، على قدْر الأسباط الاثنتي عشرة، والسبط مثل القبيلة في بني إسرائيل، وكان كل سبطٍ منهم أمة، وحتى في عبور البحر كانوا ﴿ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمًا﴾.

وهذا عمل تنظيمي من أجل ألا يكون ازدحام على الماء أو تنافس فيه، وحتى يُعرف سلوك كل مجموعة، ويكون لكل واحد منهم عريف يعرف جماعته ويوجههم.

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾؛ أي فانفجرت ﴿مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ﴾، كل مجموعة منهم عرفت العين التي لها، حتى لا يقع بينهم تزاحم أو معارك أو خلاف؛ لأنهم مؤهلون لمثل هذا الخلاف، خاصة في التيه والصحراء والغربة، وغياب الرؤية المستقبلية عند كثير منهم.

أعطاهم الله تعالى هذا الطعام، وأعطاهم هذا الماء فشربوا وأكلوا مدة، ثم قالوا يا موسى: ﴿لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ﴾؛ مللنا تكرار الطعام في الفطور والغداء والعشاء، ﴿فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾؛ يريدون أن يوجد كل شيء بمعجزة وآية، ﴿مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ﴾؛ سبحان من صبَّر موسى عليهم! عندهم المن والسلوى، وهي أشياء طيبة ومباركة والظرف عصيب، ولم يكونوا يستمتعون بهذا الطعام في ماضيهم وقت الاستضعاف والاستعباد، ومع ذلك رجعوا يطلبون الفوم وهو الثوم، والكراث والبصل والبقل

والعدس، فقال لهم موسى -عليه السلام- متعجبًا: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾، ثم قال: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ فهذا الذي تطلبونه موجود في كل مكان، وقد ضَمَّن شاعرٌ هذا الموقف فقال:

فَيَا مَنْ لَيْسَ يُقْنِعُهُ حَبِيْبٌ وَلَا أَلْفَا حَبِيْبٍ كُلَّ عَامْ
أَرَاكُمْ مِنْ بَقِيَّةِ قَوْمِ مُوْسى فَهُمْ لَا يَصْبِرونَ عَلَى طَعَامْ[1]

وقد يدل هذا على أن التيه - كما قلت سابقًا- له جانب شرعي وجانب قدَري، وأن الأنبياء كانوا كالحراس لهم حتى لا يخرجوا، فقد قال لهم موسى: لو هبطتم مصرًا من الأمصار يعني في الأردن أو في سوريا أو في الأرض المقدسة، التي رفضتم أن تدخلوها فسوف تجدون هذه الأشياء.

وقد علَّق الله -سبحانه وتعالى- على هذا الحدث، وعلى ثقافة الرجل الإسرائيلي وطبيعة تكوينه، الذي عاش فترة طويلة جدًّا من الذل والاستعباد: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

التيه الأعظم:

كان هذا تيه بني إسرائيل، وقد أصبح تاريخًا وعبرة وخرجوا منه، أما التيه الذي ما زال قائمًا فهو التيه الأعظم؛ تيه الشعوب التي لا تعرف مستقبلها، والتي لا تسهم في صياغة مستقبلها، الشعوب التي لا تدري ما الذي يمكن أن يجري لها غدًا أو بعد غد، الشعوب التي يكون مستقبلها مربوطًا بجزئيات،

(1) ينظر: «الشعر والشعراء» (806/2)، و«أخبار النساء» (ص147)، و«الدر الفريد» (145/2).

وتفاصيل وأحداث غيبية ليس لهم فيها نقير ولا قطمير ولا أخذٌ ولا ردٌّ.

فكثير من شعوب العرب والإسلام تعيش حالة من التيه؛ لأنها لا تعرف مستقبلها، ولا تعرف حاضرها، ولا حجم التحديات ولا طريقة الخروج منها، والمصيبة أن تيه بني إسرائيل كان أربعين سنة: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، لكن تيه العرب على وجه الخصوص، والمسلمين عامةً تيه غير محدد بزمن؛ وليست العبرة بعدد السنوات، ولكن بما جرى من تغيير في هذه السنوات، فبنو إسرائيل تعرّضوا خلال التيه لعملية بناء جديدة تربيةً وإصلاحًا، وفي الصحراء اكتسبوا أخلاقًا جديدة وتغيّر الجيل؛ حتى تحقق لهم دخول الأرض التي كتب الله لهم.

لكن الشعوب العربية والإسلامية، لم تتغير فيها الظروف ولا القابلية والاستعداد، ولم تُرَبَّ الأجيال الجديدة على شيء مختلف عما تربَّى عليه آباؤهم، فلا يوجد في عالمنا العربي مشروع تعليمي لإخراج أجيال جديدة واعية عارفة بقضاياها، ولديها القدرة على خدمة أمتها وأوطانها خدمة صحيحة؟!

ولا مشروع نهوض حضاري تتوافر عليه دولة من الدول، ليكون المال أساسًا لجوانبه المادية، ويكون الاستثمار البشري ورأس المال الإنساني والتنمية الذاتية دعائمه، وتكون هناك رؤية واضحة يتواطأ الجميع عليها، ويتعاونون فيها، ويُعزز بعضهم بعضًا، ويشعرون بالانتماء، وكل واحد يؤدي دوره في هذا العمل كأنه بناء؛ ولكل دوره في هذا البناء.

ولذلك فالأمة الإسلامية في تيه تجاه مستقبلها، وتجاه أجيالها، وتجاه أعدائها،

وتحديات هذه الأمة؛ سواء نظرنا إلى التحدي الصهيوني الذي هو أثر من آثار بني إسرائيل وغطرستهم، أو نظرنا إلى التحديات الأخرى، مثل التحدي الطائفي الصفوي الذي يتمدد في الأمة العربية، ويطوي الأرض عاصمة بعد أخرى، من العراق إلى سورية إلى اليمن إلى الخليج إلى لبنان، فلا يمكن أن تواجَه المشاريع إلا بمشاريع، وهذا معناه أننا سنظل في هذا التيه دون توقف:

كَمْ تصمُدِينَ على العِتَابِ ... وتَسْخَرِينَ من الملامِ!
نَامِي إليكِ تحيَّتي ... وعليكِ نائمةً سَلامي
نَامِي إلَى يَومِ النُّشورِ ... ويومَ يُؤْذَنُ بالقِيَامِ[1]

الدَّولةُ العميقةُ:

موسى السَّامري، ذُكر في القرآن الكريم في سورة طه: ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾، وهو منسوب إلى مدينة السَّامرة، وهو رجلٌ من بني إسرائيل، ولكنه كان قريبًا من فرعون، وعاش في مصر مع الإسرائيليين، وكان ذا منصب قيادي فيهم، ولما خرج بنو إسرائيل خرج السامري معهم، ومظهره مظهر المؤمن، لكن حقيقته أنه منافق، أي ينتمي لما يسمى بلغة العصر الحاضر بـ«الدولة العميقة»، فهو موجود داخل الإسرائيليين وخرج معهم، لكنه يخطط لاحتمالية الرجوع.

ولما خرج الإسرائيليون في الخروج الكبير فقدوا أشياء مادية؛ مخصصات، أموال، عقار، أراضٍ، مزارع، ثروات، خدمات، أعمال..، لكنهم كسبوا في مقابلها الاستقلال كأمة، ثم ظهر فيهم من يحرضونهم على الرجوع، وبعضهم قال لموسى: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾؛ أي لم نستفد شيئاً،

(1) «الأعمال الشعرية الكاملة» لمحمد مهدي الجواهري (2/43-48).

وها نحن في الصحراء وهذا حالنا، ومن الرؤوس الذين تخصصوا في مثل هذا الإحباط والوشاية والثورة المضادة السامري.

عِجلٌ ذهبيٌّ:

وتبدأ قصة السامري عندما ذهب موسى إلى ربه، ومكث ثلاثين يومًا، ثم مددها عشرة أيام لسرٍّ يعلمه الله، حيث أكل موسى قبل اليوم الثلاثين بعض بُقُول الأرض، لأنه كان صائمًا وكره أن يخاطب ربه برائحة فمه، فقال له ربه سبحانه: (**إن خلوف فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك**)، وأمره أن يصوم عشرة أيام أخرى؛ استعدادًا لأن يذهب إلى الطور ويناجي ربه ويكلمه، وكان الله - سبحانه وتعالى- وعده بذلك، فتأخر موسى في العودة لبني إسرائيل عشرة أيام ثم ناجى ربه، ويقال إن الأيام العشرة هذه تصادف عشر ذي الحجة.

وكان كثير من بني إسرائيل أخذوا ذهبًا وحُليًّا من المصريات على سبيل الاستعارة، أو لسبب آخر وذهبوا به معهم، كما يظهر في قول نساء بني إسرائيل: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا﴾.

فاستغل السامري هذه الظروف، واستغل نفسيات بني إسرائيل الذين تعودوا على العبودية، واستغل تأثرهم بعبادة الفراعنة للعجل، وخبرته في صياغة الذهب، وأمرهم أن يعطوه هذا الذهب، فطاوعوه ربما تأثّمًا لأنه أُخذ بغير حق، ووضعوه في حفرة كما أمرهم السامري، فأوقد عليه وصنع منه عجلًا، وجعله يصدر أصواتًا؛ قيل: من خلال جعل مداخل ومخارج للريح فتمر بداخله فيصدر خوارًا، وقيل: أخذ ترابًا من أثر فرس جبريل وقذفه في جوف العجل

الذي صنعه، فأصدر خوارًا، ويزعمون أن فرس جبريل إذا وطئ مكانًا اخضرَّ لأنه مبارك، وأن ترابه إذا ألقى على جماد سرت فيه الروح، وهذا مذكور في كثير من كتب التفسير، وهو زعم لا دليل عليه. والراجح أن هذا نوع من الشعوذة والسحر والتراث البابلي، الذي قال الله تعالى عنه: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ﴾، والحضارة المصرية اتبعت هذا النمط، بدليل سحرة فرعون وموسى التي تحدت سحرهم، وكانت تلقف ما يأفكون.

﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾، وأوهمهم أن هذا إله موسى، وأن موسى نسي، وجعل الإسرائيليين يدورون حوله ويقربون له القرابين؛ فارتكسوا بمجرد أن غاب عنهم موسى عشرة أيام إضافية.

سامريُّ العصرِ:

وفي قصة السامري تنبيه لدور المنافقين في تغيير عقائد الناس والتلبيس على العامة، وهو دور يقوم به الإعلام العالمي باستمرار، رغم أنه يتظاهر بالحياد، ويقدم لك خبرًا أو تحليلا أو دراما في ظاهرها صادقة وعفوية، ولكنها مؤثرة جدًّا في صياغة عقول الناس وفي التأثير عليهم، ويتلقَّاها الصغار والكبار.

وقد يكون الإعلامي متَّهمًا بالكذب اتهامًا واضحًا لا شك فيه، ورغم ذلك يتأثر به الناس ويستمعون إليه، ويغزو عقولهم بحِيَله، ويستميل نفوسهم.

إيَّاكَ مِن كذِبِ الكَذُوبِ وإِفْكِهِ ... فلرُبَّما مـزَجَ اليقـينَ بشَـكِّهِ

ولرُبَّما كذَبَ امرؤٌ بكلامِهِ ... وَبِصَمْتِـهِ وبُكائِـهِ وبِضِحْكِـهِ[1]

(1) «ديوان أبي العتاهية» (ص317).

وهذا يلقي بالمسؤولية على عاتق المؤسسات التي يديرها الصالحون من أتباع الأنبياء، حيث ينبغي أن تتسلح بالأساليب الحديثة لتقدم الحقيقة للناس، وتحصِّن عقولهم فلا تقبل أي أكذوبة، فتحويل القديس إلى إبليس، وتحويل المجرم إلى ولي، مصيبة كبرى، معناها أن الموازين عند الناس مختلة.

ويجب أن يكون هناك مجاهدة ومقاومة، ومحاولة إصلاح وتعديل، فقد تروج بعض الأكاذيب، وتنتشر في كثير من وسائل الإعلام ولكنها لا تستمر للأبد، مثل قصة العجل، الذي عُبد فترة وجيزة ولكن سرعان ما حُرِّق ونُسف في البحر، ولم يبق له أثر.

وقد تعرَّضتُ ذات مرة لحدث مثل هذا؛ فقد كذب عليَّ أحدهم كذبة واضحة، والكل عرفها وأنا لم أبالِ، لدرجة أنني فتحت اليوتيوب ذات يوم فوجدت أن الذين شاهدوا هذه الكذبة أربعمائة ألف شخص وهو رقم كبير، حتى سألني أحد أطفالي عنها، وقد تألمت لذلك أشد الألم، إذ وصل الأمر لبيتي، وهي كذبة مفضوحة لا دليل عليها، فاضطررت أن أغرد حول الموضوع، رغم أني لا أرد كثيرًا.

لي حيلةٌ فيمَن يَنِمُ وليسَ في الكذَّابِ حِيلةْ
مَنْ كانَ يَخلُق ما يقُو لُ فحِيلتي فيهِ قليلةْ[1]

* * * * *

(1) ينظر: «المنتحل» (ص197)، و«ربيع الأبرار» (343/4)، و«معجم الأدباء» (2724/6).

قَارُون

ذكر الله تعالى قارون في مواضع من القرآن؛ منها موضعان جمع الله - سبحانه وتعالى- فيها قارون مع فرعون وهامان.

الموضع الأول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ﴾. وفرعون يُمثل السلطة السياسية، وهامان يُمثل الوزارة، وقارون يمثل السلطة المالية.

الموضع الثاني: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ﴾.

والموضع الثالث آخر سورة القصص، حيث ذكر الله تعالى قصته مفصّلة: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ﴾.

واسمه قارون، حتى في التوراة اسمه قريب من هذا الاسم مع التعديل البسيط الذي يقع عادة بين اللغات، وكان ابن عم موسى، كما قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾؛ فهو ابن عم موسى وهارون، من الأسرة

نفسها، إسرائيلي من بني إسرائيل، ولكنه كان قريبًا من فرعون؛ ولذلك جمعه الله معه ومع هامان، أي أنه كان ثالث ثلاثة، وكان ذا استثمارات ضخمة، ويقول بعض المؤرخين: إن فرعون جعله الرئيس على بني إسرائيل.

والمشهور أن فرعون الذي هو رمسيس قسّم مصر إلى ثمانٍ وثلاثين ولاية، وجعل على كل ولاية حاكمًا، ولعل الولاية التي كان فيها بنو إسرائيل وتسمى «**جاسان**» أو «**جاشان**»، ولعل قارون كان رئيسًا عليهم، ومن خلال الرئاسة تكوّنت لديه أموال طائلة؛ حتى إنه أعطاه الله تعالى ﴿مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ يعني المفاتيح التي معه فقط ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾؛ مجموعة من الأقوياء يحملون مفاتيحه، ولا يستطيعون أن يحملوها لثقلها.

تبخترُ هالكٍ:

ورغم أنه منهم ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؛ كان عنده بطَرٌ وأشَرٌ ومبالغة في حب المال والعبودية له وتوظيفه في الشر، فنهاه الصالحون من قومه عن ذلك: ﴿قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾؛ والفرح المقصود هنا هو البطر والأشر والكِبْر.

والمبالغة في الغرور تعمي المغرورين عن الحقائق، وتجعلهم لا يفرقون بين ما يجب الفرح فيه، وما لا يجب، وهناك ما هو محمود من الفرح وهناك ما هو مباح، مثل الفرح بفضل الله ورحمته: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾، والفرح بالزوجة الصالحة، والفرح في المناسبات، والفرص الجميلة.

ونصحه قومه بالطريقة الصحيحة لاستغلال ماله: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾؛ أنفق على الفقراء وعلى المعسرين طَالِبًا ثوابَ الله في الآخرة، ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي الرفاهية في العيش وغير ذلك.

الخيار هنا بين من يريد الله والدار الآخرة والدنيا أيضًا، ومن يريد الدنيا فقط ولو على حساب الآخرة، ولذلك يقول المؤمنون في دعائهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، أما غير المؤمنين فيقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾. فطلب الآخرة لا يعني ألا تطلب الدنيا، اطلب الدنيا والآخرة معًا، لكن لا تكون الدنيا هي مبلغ همِّك وهمتك.

ومن نصحهم له: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ إذن هم لاحظوا أنه من أهل البغي والفساد.

وكان ردُّه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾؛ قيل: كان عنده علم بالتوراة، وقيل: عنده علم بالكيمياء، ويحول الحجر إلى ذهب، والصحيح أنه كان عنده علم بمهارات جمع المال.

وعقَّب الله تعالى على تبجُّحه هذا بتذكيره بالقرون التي قبله، الذين كانوا أشد منه قوة وأكثر جمعًا للمال ورغم ذلك أهلكهم؛ مما يعني أن القوة والمال ليسا معايير تفضيل، ولا دليل مكانة عند الله، وإلا لما أهلك الله أربابهما: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

وكان من أمره أنه خرج في موكب من مواكب فرحه وأشره وبطره: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ﴾، تخيل الموكب المهيب لرجل غني لخصه القرآن بكلمة واحدة: ﴿فِى زِينَتِهِۦ ۖ﴾، موكب مبهر لشعب فقير ومسحوق بالسخرة، لكن هذا الرجل في الزينة، عنده مراكب وملابس وخدم وحشم وأعوان وموكب مزين، يمشي وسط بني إسرائيل، وينظر أهل الدنيا إليه ويشيرون إليه من بعيد بشغف

وتعلُّق قلب ويقولون: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾.

بينما الصابرون المؤمنون أولو العلم قالوا: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾؛ لأن هذه الأشياء كلها زائلة وفانية،وكثير من الناس يدورون حول المال، وتتعلق به قلوبهم ويعظِّمون أصحاب الأموال، ويبذلون حياتهم كلها من أجل جمع المال، مع أن المال في الواقع هو متاع ووسيلة وليس غاية.

ثم كان عاقبته ما أخبر الله به: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾[1].

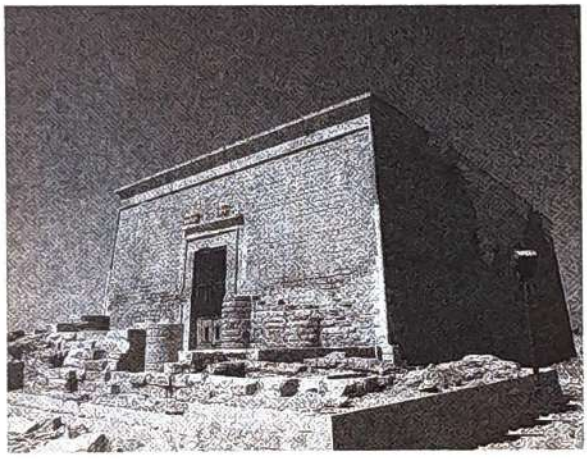

قصر قارون بعد ترميمه

وإذا الطائفة الدنيوية التي كانت تتمنى مثل ما عنده لما رأوه في زينته تغيّر موقفهم لما رأوه يهلك: ﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

ثم قال الله سبحانه عن العبرة من هذا الحدث: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ﴾؛ فمثل فرعون وهامان وقارون يريدون العلو والفساد في الأرض، أما الدار الآخرة فيجعلها الله للصالحين مثل موسى، وهارون، ويوشع، والمصلحين.

* * * * *

(1) ينظر: «تفسير ابن جرير» (18/334-336)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (9/3017-3018).

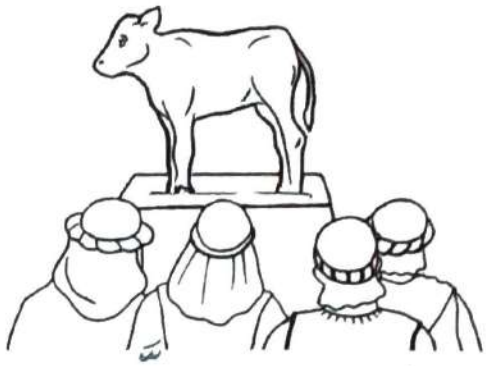

العِجْل الذَّهبي

سار موسى لربه وفوّض هارون خليفة له بقوله: ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، وكأن موسى لاحظ قبل أن يذهب للقاء ربه أن هناك مؤامرات خفية تدار، وأن هناك مفسدين منافقين يعملون في الظلام. ولكن حدث ما حدث وعبد العجل كثير منهم، وكان ممن لم يعبده السبعون الذين اختارهم موسى لميقات ربه، وهارون -عليه السلام- ويوشع، ونصح لهم هارون المستخلف عليهم، وقال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾، اتركوا العجل لا تعبدوه، فقالوا: ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾. وكان اعتقد بعضهم لما تأخر موسى أنه مات ولن يرجع؛ ولذا تجرؤوا على عبادة العجل، وربما أشاع السامري وقبيلُه الأشرار مثل هذا الكلام بإعلامهم الفاسد، كما قال أبو تمام:

لوْ لـم يَكِـدْ للسَّامـريِّ قبيلُـهُ ... مَـا خَـارَ عِجْلُهُـمُ بغـيرِ خُـوارِ[1]

فأخبر الله - سبحانه وتعالى- موسى وهو عنده: ﴿فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ

(1) «شرح ديوان أبي تمام» للتبريزي (340/1).

﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾، أخبره بالقصة كلها، والشيء العجيب أن موسى سمع بالخبر وسمع بالقصة، ومشى دون أن يظهر الغضب عليه، حتى جاء قومَه ورأى بعينيه ما أخبره به ربه، وهو يعلم أن خبر الله حق وصدق، لكن لما رأى بعينيه أن قومه الذين جهد في دعوتهم يُعبِّدهم لله قد انتكسوا من بعده، وصاروا يتراقصون حول العجل ويسجدون له ويعبدونه أصيب بانفعال وغضب شديد، ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾، فقد كان يريد من هارون موقفًا أقوى، وهارون بطبيعته فيه أناة ورفق وصبر.

ولما أخذ برأسه ولحيته يجره إليه ذكّره بعلاقة الأمومة مع أنهم إخوة من الأم والأب، ولكن الأمومة فيها الرقة والرحمة، ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾، هو نفسه صار في خطر في غيبته، وفي موقف ضعف، بل وصل الأمر إلى محاولة القتل، ومعنى ذلك أن السامري وقومه لهم نفوذٌ.

وقال لموسى معتذرًا: ﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾؛ إني خفت إن أخذت موقفًا قويًّا أن تعاتبني على التفريق بين من عبدوا العجل ومن لم يعبدوه، ورأيت أن الأفضل انتظار رجوعك وهو قريب، ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ﴾؛ سوف يفرحون إذا آذيتني، ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وكان لهذه الكلمات ولهذا العذر تأثير على موسى، فسكت عنه الغضب، ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾، ودائمًا أقف عند هذه الآية، فالغضب صوت مشوّش مزعج، والإنسان إذا غضب لا يحس بما حوله ويغيب عقله، ويقع أسيرًا لصوت الغضب.

فرجع موسى و﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾، وأعطاها بني إسرائيل وبلَّغها لهم، وفي نفس الوقت رجع إلى هارون ودعا له واستغفر، وقال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

لا مساس السَّامريّ:

ثم جاء دور عقاب السامري، وكان عقابه مختلفًا عن هارون؛ لأن هارون محل ثقة عنده، أما السامري فهو منافق ميئوس من إيمانه، وكأن موسى علم بوحي من الله أن لا أمل في أن يكون السامري من المؤمنين، فقال له موسى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾، ما حملك على هذا؟ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ﴾؛ رأيت مالم يروه، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾، وهذه الآية تحتمل معنيين:

الأول: أنه وجد أثرًا من أثر الرسول الذي هو جبريل، ورماه على العجل الذهبي فصار يخور، وهذا قاله كثير من المفسرين.

الثاني: أنه قبض قبضة من أثر الرسول الذي هو موسى، أي أنه تلقَّى بعض التوحيد وبعض الإيمان، ثم لما ذهب موسى إلى ربه تخلَّى عن ذلك، ونبذه وزينت له نفسه العمل السيئ الذي هو عبادة العجل. فعاقبه موسى بقوله: ﴿فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾؛ ولها أيضًا معنيان:

- إما أن موسى دعا عليه فأصابه الله تعالى بما يشبه المرض في جلده، ما جعل الناس يبتعدون عنه، وهو يبتعد من الناس، فإذا اقترب منه أحد

أو لامسه أحد فإنه يمرض ويتضرر، كما يكون عند الإنسان نقص شديد في المناعة مثلًا، فلا يقترب من الناس ولا يقترب الناس منه.

- أو أن موسى أصدر أمرًا بأن يتجنبه الناس ولا يقتربون منه.

لكن الأقرب الأول؛ لأن السامري نفسه صار يقول إذا اقترب منه أحد: لا مساس. لا تقربني ابتعد عني، وتوعده موسى قائلا: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾؛ وهذا الموعد يوم القيامة.

ثم اتجه إلى العجل الذي صنعه، وقال: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾؛ ربك الذي تعبده وجعلت الناس يعبدونه، ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾، فقام موسى بتكسير هذا الذهب وتحريقه ورميه في اليم.

وعقاب السامري باعتزال الناس لأجل ألا يؤثر فيهم بما يضرهم، لأنه واضح أن السامري ذو رسالة سلبية، فتم عزله عن الناس حتى لا ينشر هذه الرسالة السلبية.

وذهب بعضهم إلى أن السامري هو الدجال؛ وقالوا إن قول الله سبحانه: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾، يعني في آخر الزمان.

لكن هذا قول ليس عليه دليل، فالسامري رجل من الناس وأهلكه الله سبحانه وبحمده، ولا يوجد أي شيء يدل على علاقة ما بين السامري والدجال سوى الدجل، فالسامري دجال من الدجاجلة، وكما قال النبي ﷺ: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ قَرِيبٌ مِنْ ثَلاَثِينَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ**»[1]، فالدجاجلة كثيرون والسامري واحد منهم، ولكن ليس هو الدجال الموعود.

(1) أخرجه البخاري (3609)، ومسلم (157) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قتلُ عَبَدة العِجل:

أما الذين عبدوا العجل فذكَّرهم موسى بدعوة التوحيد التي جاء بها: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾. وقد تابوا إلى الله لكن كان من توبتهم ما أمرهم به موسى: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، فأمرهم موسى -عليه السلام- في الليل أن يقتل بعضهم بعضًا.

وهناك من رأى أن القتل قد تم، وأنهم قد قتلوا بعضهم بعضاً عقوبة وكفارة لهم.

وثم احتمال آخر أن يكون الأمر بقتل أنفسهم هو أمر امتحان وابتلاء يتحقق بصدق العزم عليه والاستعداد لتنفيذه، كأمر سيدنا إبراهيم -عليه السلام- بذبح ولده، فلما صدق منهم العزم عليه وتهيؤوا لتنفيذه جاءت توبة الله عليهم، فتاب عليهم قبل المباشرة[1].

ويقوي هذا الاحتمال أن أكثر بني إسرائيل قد عبدوا العجل بحيث استضعفوا هارون وتغلبوا عليه، فلو حصلت هذه المقتلة فيهم فكم سيبقى من بني إسرائيل مع موسى؛ ليتوجهوا إلى الأرض المقدسة ويؤمرون بقتال أهلها.

كما أن الآيات ذكرت الأمر، ولم تذكر التنفيذ، كما أن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فالامتنان على المخاطبين بالعفو دليل على أنهم بقوا أحياء بعد ذلك، فَذُكِّروا بالذنب وبالعفو.

---

(1) ينظر: «تفسير الماتريدي» (1/ 464)، و«تفسير الماوردي» (1/ 122)، و«التفسير البسيط» (2/ 537)، و«تفسير السمعاني» (1/ 80).

فهذا جيل تربى على العبودية، وعلى الوثنية، يحن إلى ماضيه، وهناك حاجة إلى نشء وجيل جديد، وإلى دروس وصدمات حتى يتخلص من نِيْر العبودية في داخله، فلم تكن العبودية مجرد أغلال في أيديهم أو في أعناقهم، بل كانت العبودية الكبرى أغلالًا في ضمائرهم وفي قلوبهم وفي عقولهم احتاجوا أن يتحرروا منها، ويصدق فيهم قول إيليا أبو ماضي:

وعجيبٌ أنْ يُخلَقَ المرءُ حُـرًّا ثـمَّ يـأبَى لنـفـسِـه الحـرِّيَّـةْ
مُستهامٌ قـضَى زمـانًـا طويلا في عـنـاءٍ مـن القيودِ القويَّةْ
وعليهِ مـنَ الـزَّمـانِ رقيبٌ عاشـقٌ لـلـسِّـيـادةِ الوهميَّةْ
ولـكلٍّ مـطـامـعٌ وأمـانٍ يـبـذُلُ النَّـفـسَ دونَـهـا للمنيَّةْ
ويَـرَاهـا لديـهِ أشرفَ شيءٍ وهيَ أدْنَى منَ الأمـورِ الدنيّةْ[1]

* * * * *

(1) «الأعمال الشعرية الكاملة» (ص194-195).

الأرض المقدسة

أمر موسى قومه، فقال: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾، هذه الأرض المطهرة والمباركة اختارها الله، وفضلها على كثير مما خلق، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾، مثلما فضّل الله تعالى مكة والمدينة، وفضّل أرض الشام أرض المحشر والمنشر.

وقد وردت مباركة فلسطين، وما حولها في أكثر من آية، منها قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾، وقال تعالى عن إبراهيم: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾، إذاً أرض فلسطين أرض مباركة، وتُسمَى أسماء عدة: بيت المقدس، والقدس أو أورشليم، وأرض الكنعانيين، وأرض الآراميين، وأرض العمالقة، وأرض الحيثيين، وأرض اليبوسيين، وكل هؤلاء شعوب وأقوام، بعضهم ذوو أصول عربية ،عاشوا في تلك الأراضي وعمَروها.

دخول الأرض المباركة:

لما خرج موسى ومن معه من البحر، ونجوا من فرعون وقطعوا الصحراء، وجَّههم الله تعالى إلى الأرض المقدسة، وقال موسى -عليه السلام- لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾، الآن المقام مقام جهاد، لأنها أمة تمكنت واستقلت وأراد الله تعالى أن يُمكّنها: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، والتمكين بأن يجعل لهم مكانًا يستقرون فيه، فكان المكان الذي اختاره الله لهم هو فلسطين وما حولها؛ الأرض المقدسة، قال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾.

وقد يفهم من معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ أن هذه الأرض هي لبني إسرائيل؛ لليهود! وهذا فهم خاطئ يرد عليه بأمور:

أولا: أنه في التوراة نفسها نص يقول: إن إبراهيم -عليه السلام- لما مر بأرض الكنعانيين ظهر له الرب، وقال له: «لِنَسْلِك تكونُ هذه الأرضُ». ونسل إبراهيم هم العرب وبنو إسرائيل، وإبراهيم له من الأبناء: إسماعيل ونسله، وإسحاق ونسله، وهناك عدد من القبائل والشعوب تدخل في معنى: ﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾، ولا تعني خصوصيتها لبني إسرائيل تحديدًا.

ثانيا: أنه قال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾، يعني: ﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ أن تدخلوها وأن تحاربوا فيها، ولكنهم نكلوا وتراجعوا ورفضوا، فما تحقق لهم ذلك.

ثالثا: أنَّ هذا مرهون بإيمانهم واستقامتهم وإخلاصهم، ولذلك قال لهم

موسى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ﴾، وقد يحتمل المعنى أنكم ترفضون الجهاد، ودخول الأرض المقدسة، لكن لو أخذنا النص بظاهره: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ فهمنا منه تصديق الروايات المتعددة التي تقول بأن بني إسرائيل بعدما عبروا البحر ووصلوا إلى الصحراء بدؤوا يتذمرون ويتضايقون، وأحيانًا يفكرون بالرجوع، فكان موسى يحذرهم: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ﴾، فكان جوابهم: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾، وفعلًا هم بعثوا جواسيس فأخبروهم أن الذين يسكنونها هم الكنعانيون العمالقة؛ طوال الأجسام، أقوياء، وقالوا: ﴿لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾، وهذا طلب تعجيزي؛ كأنهم يطلبون من موسى معجزة تخرجهم منها فإذا خرجوا دخلوها. دون أن يكون لهم دور وقيام بالمسؤولية، وقد أكدوا موقفهم هذا بعد إلحاح موسى، فقالوا: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا﴾؛ لا تحاول، ثم قالوا بأسلوب فيه تجرؤ وسوء أدب مع الله ومع رسول الله: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾.

وهي استهانة وعدم مبالاة غضب منها موسى، و﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى﴾، مع أنه معه ﴿رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾، يعني يخافون الله تعالى، وهما من بني إسرائيل ولكن الله أنعم عليهما بالإيمان، وهما: «كالب بن يوفنا»، و«يوشع بن نون»، وكانا ضمن من أرسلهم موسى للإتيان بخبر القوم، وكانا متحمسين لأنهما مؤمنان، وقالوا لابد أن ندخل، ولكن موسى لما شكا إلى ربه، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى﴾؛ لأنهما

المتحملان للقيادة والمسؤولية ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، دعا عليهم؛ فعوقبوا بالتيه.

وقد استُحضِر هذا الموقف في غزوة بدر، فقد قَالَ الْمِقْدَادُ بن الأسود -رضي الله عنه- لما استشارهم النبي ﷺ: والذي نفسي بيده لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾، وَلَكِنِ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون[1].

فالفارق أن المقداد والمؤمنين معه عندهم جلَد وصبر وعزيمة واستعانة بالله، وعندهم حسن أدب مع الله وطاعة لله ولرسوله ﷺ، ولذلك كانوا هم أمة الجهاد.

ومواصفات بني إسرائيل في هذا الموقف بالذات هي مواصفات الشعوب الذليلة المستعبدة، ويلفت نظري في السياق القرآني آية: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، صراحة مع كثرة قراءتي لقصص موسى في القرآن الكريم، وقصص موسى في الكتب صار عندي تعاطف معه، ومعايشة له في كثير من الحالات، فعندما يقول له ربه: ﴿فَلَا تَأۡسَ﴾ معناه أنه كان حزينا أن تكون هذه نهاية التجربة والصبر والخروج والآيات التي رأوها، وجهد عظيم وحُلم يتبخر على يد هؤلاء الذين لا يكادون يستقيمون على أمر من الأمور، فعزَّاه ربه: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

(1) «الأعمال الشعرية الكاملة» (ص194-195).

فالقيادة كانت قيادة قوية دون استبداد؛ والدائرة المحيطة به فيها إيمان وصدق ورؤية واضحة، ولكن الشَّعْب والأتباع كان فيهم الكثير من الهشاشة، فتراجعوا وتأخروا كما في قصة الأرض المقدسة، والشعوب العزيزة دائمًا هي الشعوب الحرة القوية التي تعرف حقوقها.

فيُفترض في الشعوب أن تعرف حقوقها، ولا يمكن معرفة الحقوق إلا بمعرفة الواجبات؛ كما نلاحظه في شعوب العالم الغربي اليوم، عندهم اعتزاز بأنفسهم وعندهم كما قال عمرو بن العاص - رضي الله عنه- في مدح الروم ضمن ما مدحهم به أنه قال: «وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ»[1]. يعني شعوب ليس من السهل أن تُغتصب حريتها، وأن تُستباح حقوقها، أو تُنتهك حرماتها، لها قوة، وترابط، وعلاقات تواصل، ونقابات، بحيث يكون شعبًا ذا مَنَعة وقوة، فيكون هناك توازن بين شعب قوي وحكومة قوية، وتصبح الدولة بذلك قوية، لكن إذا كانت الحكومة قوية، والشعب ضعيف، فهذا معناه أن الميزان مختلٌّ، ولو كانت الحكومة ضعيفة والشعب ضعيفًا، فهذا معناه أننا أمام دولة فاشلة، فإذا وُجد هذا التوازن الرائع بين شعب قوي، وحكومة قوية فإنه توجد دولة عظيمة.

* * * * *

(1) «صحيح مسلم» (2898).

بَشَرِيَّةُ موسى

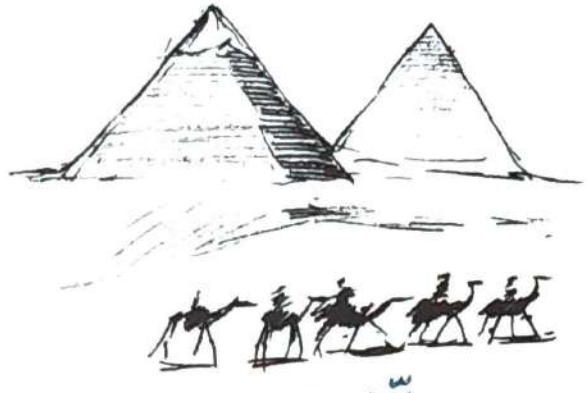

التِّلقائيّة

موسى إنسان اجتماعي، يظهر هذا في كل مكان حل فيه؛ في القصر، في البيت، في المدينة، أينما حلَّ ظهرت روحه الاجتماعية.

وهذا هو مفتاح شخصية موسى، والأمثلة على ذلك كثيرة:

منها قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾، المدينة هذه هي مَنْف أو مَمْفِيْسُ، وهي قريبة من البدرشين بالجيزة، فهذه المناطق كانت هي عاصمة الفراعنة آنذاك، ودخل في وقت الظهيرة، والناس نائمون، والجو خالٍ دون زحامٍ، ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾، فالقرآن يصور لك المشهد حيًّا، فيجعلك تراه بخيالك، فهذا قبطي وهذا إسرائيلي، والقبطي عادةً ما يكون ظالمًا؛ لأنهم متفوقون على بني إسرائيل، ويسخِّرونهم أحيانًا، ويقال إن القبطي كان طباخ فرعون، وكان يطلب من الإسرائيلي أن يحمل معه الأطعمة بالسخرة وبالقوة وبدون مقابل، والإسرائيلي يأبى.

ولما رأى الإسرائيلي موسى الذي أصبح شخصية معروفة باعتباره إسرائيليًّا يعيش في قصر فرعون، فاستغاثه الإسرائيلي باعتبار القرابة، ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾؛

وكزه يعني لكمه، أي جمع يده وضربه ضربة قوية، ولم يكن يقصد القتل لكنها وافقت مقتلًا، وقدَرًا إلهيًّا، وموسى رجل قوي وربما كان القبطي ضعيفًا، فكانت هي القاضية، ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾، وهذا يسمى قتل خطأ أو قتلًا شبه عمدٍ، وهذا تصرف عفوي من موسى، وقد تألم و﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾.

ثم تكرر الأمر من الإسرائيلي في اليوم التالي، فأقبل موسى، وهو يقول لهذا الإسرائيلي: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾، أي كل يوم تقوم بمشكلة، وهمَّ أن يدفع القبطيَّ، فظن الإسرائيليُّ أنه يريده فقال: ﴿يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

إذن موسى يُعرف عنه أنه مصلح، ويحاول الإسرائيلي أن يحبطه، ففضح السر مع أنه أحسن إليه، ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾؛ فخرج موسى يمشي خائفًا، فأتاه رجل من أقصى المدينة، وكما يقولون: «الأطراف منازل الأشراف»، وقد يكون هذا الرجل فرعونيًّا أو إسرائيليًّا، فهمس في أُذن موسى: إن فرعون والملأ يأتمرون عليك لقتلك، ﴿فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾، وبعفوية موسى -عليه السلام- قبل النصيحة وخرج من فوره، دون أن يسعى للتأكد من خبر هذا الرجل، ولكنه بفطرته وعفويته أحس أن هذه معلومة صحيحة، فخرج مباشرة، ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾، فهذه من عفوية موسى.

ولما نزل عند ماء مدين، وهو غريب، لا يعرف البلد، ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾، وجد مجموعة كبيرة من الناس يسقون غنمهم، ﴿وَوَجَدَ مِن

﴿دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾، ووجد بنتين تبعدان الغنم عن الحوض، فالموقف الآن أنه رجل غريب ومطلوب للفرعون، وخائف، ومع ذلك تظهر العفوية التلقائية الصادقة في شخصيته، فبادر وسألهما: ﴿مَا خَطۡبُكُمَاۖ﴾؛ لماذا لا تسقون مثل الناس؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾؛ لا يليق بهن مزاحمة الرعاة، وأبوهم لا يستطيع أن يرعى لأنه شيخ كبير، ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾؛ فعمل خيرًا تطوعيًّا في بيئة لا يعرفها، وفي ظروف صعبة، قام بذلك بتلقائيته وعفويته.

ثم لما جاء موسى أبا الفتاتين، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾؛ الرجل لا يعرفه موسى ورغم ذلك يعطيه أسراره بتلقائية وعفوية، وعرف بحدسه أنه رجل صالح وآنس منه خيرًا وعرف بفراسته وذكائه أن هذا رجل مأمون، ولذلك قصّ عليه قصته، منذ رموه في اليم، وفي حجر فرعون، وظروف بني إسرائيل، وقتل الرجل وأنه أصبح مطلوبًا، والطريق الذي سلكه، قصّ عليه القصص كلها.

ومن عفويته -عليه السلام-، أنه لما عرض عليه الرجل الزواج: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾، وافق مباشرة، وكثير من الشباب والبنات عند مشروع الزواج تجده يجلس شهورًا يفكر، ويسأل عن الطرف الثاني، ويتحرى، أما موسى -عليه السلام- فوافق مباشرةً.

ومن عفويته وافق على عقد العمل لمدة ثماني سنوات قابلة للتمديد إلى عشر في ظروف لا يعرفها، ومع رجل لم يسبق أن عرفه، يقال إنه نبي الله شعيب وليس بصحيح، فإن شعيباً قد أنجاه الله وأهلك قومه بعذاب يوم الظلة، ولا يتصور أن يكون قد بقي هو والمؤمنون معه ثم يعامل في كبره هذه المعاملة من قومه الذين أنجاهم الله معه[1].

(1) ينظر: «خواطر دينية» لعبد الله الغماري (38-39).

ولكن يتضح من القصة أنه رجل صالح من أهل مدين التي هي بلدة شعيب.

وتظهر عفوية موسى أيضًا لما قضى الأجل وذهب إلى ربه في الطريق وسمع منادي الله - سبحانه- فقد كانت تصرفات موسى عفوية جدًّا، فلما سأله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾، فأطال في الحديث بعفوية وأنس بالخطاب الإلهي، ولما رأى العصي تمشي كأنها جانٌّ، ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾. أصابه خوف وتصرف بعفوية.

وفي قصة قومه لما جاء ووجدهم يعبدون العجل فغضب عليهم وغضب على هارون بالذات لأنه هو خليفته عليهم، وألقى الألواح، وهذا التصرف فيه عفوية، فالألواح التي جاء بها من الله فيها هُدًى وفيها الوصايا، ويقال إنها عشرة ألواح أو ثمانية أو لوحان، وربما تكون من حجارة أو من خشب، فألقاها ولم يرِد أنها تكسّرت، ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾، وليس بصحيح أنه أخذ برأس أخيه يجره إليه للعطف والحنان كما يحاول بعضهم أن يفسرها، بل هذا تصرف موسى بعفويته، انطلق فيها مع سجيته ومع حالة الغضب التي تعتريه في هذا الموقف.

حتى مع فرعون، رغم أن الله - سبحانه وتعالى- قال له: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾، وكل الأنبياء وكل الدعاة يوصون بالقول اللين، ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، قال موسى له القول اللين ودعاه، وفي إحدى جولات الحوار بينهما دعاه موسى: ﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾، لعلك تعرضت لسحر، والسحر

عندهم مشهور جدًّا، وهكذا قالوا عن الرسول ﷺ من بعد، فقال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾، كلام قوي شجاع عفوي، ينطلق على سجيته وعلى عفويته.

فهذه ميزة وخاصية جميلة في موسى؛ وهي عفويته وتلقائيته ومبادرته.

* * * * *

نقاط ضعفي

أخبر عمر - رضي الله عنه - أحد الشباب أن المرء قد يكون عنده تسعة أخلاق حسنة وخلق واحد سيئ، فما يزال هذا الخلق السيئ حتى يتغلّب على الأخلاق التسعة[1]؛ لذلك يجب على الإنسان ألا يغفل عن جوانب ضعفه، وأن يعالجها حتى لا تفسد بقية نقاط قوته.

كيف تعرفها؟

هناك عدة طرائق تمكنك من معرفة جوانب ضعفك منها:

أولًا: الاعتراف بأنه لا يوجد إنسان دون جوانب ضعف، عرفها أم لم يعرفها.

ثانيًا: أفضل ما يعرِّف الإنسان بجوانب ضعفه هو مراقبة النفس، ومراقبة النفس ليست مرحلة موقوتة أو حالة منتهية، بل يجب أن تكون المراقبة مصاحبة لك في كل الظروف.

---

(1) أخرجه عبد الرزاق (8239، 8240) من طريق قبيصة بن جابر، عن عمر رضي الله عنه. وصححه الحاكم (310/3).

وبعضهم ينصح بأن تستعرض أعمالك التي قمت بها سائر النهار عندما تخلد إلى النوم، بل يجب أن تذهب أبعد من هذا، فيكون لديك عادة نفسية دائمة بعد كل موقف، وفي أثناء الموقف، وبعد كل يوم، وبعد كل أسبوع، وبعد كل تجربة، وفي كل حالة، وبعد كل مشكلة تحدث لك سواء كانت مع قريب أو غريب، يراقب الإنسان نفسه دائمًا، ويسأل: أين أخطأت؟ وأين أصبت؟

وبعض الناس يمضي حياته دون مراجعة، ويصدق عليه قول الله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، يعني لا يرجع للوراء، فمن المفترض أن ينظر الإنسان دائمًا إلى الوراء نظرة تصحيح وتطوير وتجديد للأداء، وضخ دم جديد في النفس.

ثالثًا: إيجاد العين الرقيبة: بأن يكون لك صديق تجعله مثل العين البصيرة التي تراقبك، ليست مراقبة الإنسان الذي يبحث عن عيوبك، إنما عناية الإنسان الذي يحاول أن يطورك ويسدد سعيك، بأفضل أسلوب، ولا تستمع للإنسان الذي ينقدك من أجل النقد، أو من أجل إحباطك.

لا ينطلق:

أنبياء الله -صلى الله عليهم جميعًا وسلم- فيهم يعقوب الذي عمي وأصابه الحزن والهم المُمضّ لفترة طويلة جدًّا، ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، وفيهم أيوب الذي عاش المرض الطويل، وفيهم موسى الذي عاش المعاناة طيلة عمره، وفيهم محمد ﷺ الذي شُجَّ وجهه وكُسرت رَبَاعِيَتُه[1]، ودخلت حلقات المِغْفَر في وجنته

(1) كما في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه عند البخاري (2903)، ومسلم (1790).

-عليه الصلاة والسلام-[1]، فهم بشر يمرضون ويعانون.

ولكن فيما يتعلق بجوانبهم النفسية فقد أعطاهم الله قوة وجلدًا، ولذلك لا ينبغي أن نطبق القوانين النفسية، أو المعلومات المتعلقة بهذه الأشياء على رسل الله وأنبيائه، فهم استثناء، وينبغي أن يُنظر إليهم نظرة مختلفة، وهذا لا يمنع أبدًا من النظر في شخصياتهم وفق ما ذكره الله تعالى في القرآن الكريم للاعتبار.

ففيما يتعلق بموسى -عليه السلام- هو نفسه قال لربه في أكثر من مناسبة: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾، ﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾، إذًا موسى لم يكن فصيحًا؛ ويقال إنه بسبب الجمرة التي أخذها، وحاول أن يأكلها ونجا بسببها من قتل فرعون[2]، وهذه رواية مشهورة، ولكنها منكرة وغير صحيحة؛ لأنه طفل صغير يصعب أن يأخذ جمرة بيده وتصل إلى فمه، ولكن ربما كان السبب في ذلك أن موسى رجل أفعال وليس رجل كلام، ومواقفه وأفعاله أبلغ من أقواله.

وقد يكون موسى من الذين إذا غضبوا أو حزنوا، أو ضاقت صدورهم لا يفصحون، وينعقد لسانهم؛ ولذلك قال: ﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾، ودعا ربه قائلا: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾، وأجاب الله تعالى دعاءه: ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾. واستغل فرعون هذا الأمر، فقال: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، فعيَّر موسى بانعقاد لسانه.

---

(1) ينظر: «سيرة ابن هشام» (80/2).

(2) ينظر: «تفسير ابن جرير» (54/16)، (184/18).

وقد يكون الخوف هو سبب ذلك الانعقاد في لسانه، فالخوف ظاهرة ملفتة جدًّا في شخصية موسى، ونلاحظ أن الخوف تحول إلى عنصر إيجابي في شخصيته بدلا من أن يكون عنصرًا سلبيًّا؛ إذ تحول إلى حذر، وحوّل الحالة التي يواجهها موسى من مجرد احتجاج أو رفض لواقع إلى برنامج تغيير وبرنامج إصلاح.

وهذا الخوف لا يتعارض مع شخصية موسى القوية وشجاعته، فقد كانت الحالات التي ظهر فيها خوفه حالاتٍ غير عادية.

وقد يكون الهم والغم سبب هذا الانعقاد، فالرسل والأنبياء الذين يختارهم الله سبحانه، يواجهون الصعاب وهم مهمومون مشغولون، يعانون تغيير البشرية ويعانون الإصلاح ودعوة الناس إلى الإيمان والتوحيد، فضلًا عن إصلاح تفاصيل الحياة، حتى لآحاد الناس؛ كرفع المعاناة عن الأطفال والشيوخ والنساء والغرباء والمستضعفين، فهو عمل تنوء بحمله الجبال الراسيات، وقد يكون هذا الهم هو سبب ضيق صدر موسى.

وقد يكون هذا الهم والغم مرتبطين بالميلاد والطفولة، والتنقل بين بيت أمه وقصر فرعون، ومرتبطًا بالأسئلة التي كانت تثور عنده وهو طفل صغير؛ أسئلة أكبر من سنه أحيانًا، وقد يكون مرتبطًا بإحساسه بالشعب الإسرائيلي وصعوبة قيادته، وقد يكون مرتبطًا بإحساسه بوطأة فرعون وتسلطه، وقد يكون مرتبطًا بقتل القبطي، فربه سبحانه في مجال الامتنان عليه، قال: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾.

ويبدو أن قتل القبطي أصبح ألمًا دائمًا مع موسى حتى آخر عمره، ففي

قصته مع الخضر قال مستنكرًا بشدة: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾، فكان موسى -عليه السلام- يحزن ويتألم كلما تذكر ذلك الموقف، وقال عند ربه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾، وعيَّره فرعون بذلك، وقال: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ورد عليه موسى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، فاعترف بفعله ذلك، معتذرًا بأنه كان في وقت لم يكن فيه نبيًّا ولا رسولًا، ولم يكن هناك بيان ولا معرفة، وربما قصد أنه كان في حالة غضب شديد وفعلها دون قصد.

إذن الهم والغم والحزن من الأشياء التي كانت تطبع شخصية موسى في العديد من المواقف.

عَجِلْتُ إليك:

أيضًا عند موسى السرعة والمبادرة، فإن ربه سبحانه خاطبه وقال: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾، لما دعاه ربه سبحانه ليكلمه على الطور وواعده ثلاثين ليلة، استعجل موسى إلى ربه وكان معه سبعون رجلًا من بني إسرائيل، فتقدم موسى وتأخروا هم، فقال له ربه سبحانه: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾، لماذا لم تستأن؟ ﴿قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾، يعني هم قريبون مني ولكن ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾، يعني حرصت على مرضاتك يا رب.

فموسى رجلٌ مبادر، يتخذ القرار بوضوح وبقوة وسرعة، وهذا أحيانًا يجعل فجوة بينه وبين الأتباع المترددين، ولديهم العديد من التساؤلات والمخاوف وغير ذلك، ولذلك أصبح هارون أشبه ما يكون بالوسيط بين موسى وبني إسرائيل، سواء بالكلام نيابة عن موسى بفصاحة وبيان وبلاغة، أو فيما يتعلق

ببعض الأفعال التي تسد الهوة التي تكون أحيانًا بين القائد وأولئك الأتباع الذين يترددون كثيرًا.

فهذه بعض الصفات والطبائع التي كانت في موسى، وكانت جزءًا من طبيعته.

ونلاحظ أن موسى -عليه السلام- يصرح بهذه الجوانب، حتى في أشد المواقف؛ أمام فرعون، وأمام قومه، أو بينه وبين ربه.

وأجدني لا أحب أن أسمع جوانب الضعف عندي، حتى لو كنت أسمعها من حبيب أو صديق أو مخلص، فهذه نقطة الضعف الكبرى عندي، فقد يكره الإنسان سماع الملاحظة أو رؤيتها، ولا يحب الإنسان أن يقولها، أو يفصح عنها حتى لا يستغلها خصومه ضده.

فمرة أفصحت عن أني أتألم من الذين يهاجمونني في تويتر، أو في اليوتيوب، أو في فيسبوك، أو في محاضرات، أو في دروس، أو في برامج، أو في كتب، أو في شيء من هذا القبيل، فرد عليّ أحد الأصدقاء، وقال لي: لو لم تقل أتألم لكان أفضل؛ لأن هذا يجعل الآخرين يهاجمونك بضراوة، ويرون أن سهامهم قد بلغت منك مبلغها.

لماذا لا نعبر بعفويتنا عن حالاتنا، سواء كانت حالة ألم، أو حالة فرح، أو حالة رضا؟ وهؤلاء الأنبياء والرسل الذين هم الفئة المختارة من البشر، كانوا يواجهون مثل هذه الحالات، فمنهم من يفرح ويحزن ويضيق صدره وينعقد لسانه ويواجه المشكلات ويخاف، ولكنه يعبر عن كل هذه الأشياء بدون تحفظ.

هذا شيء جميل أتعلّمه من موسى؛ التعرف على نقاط الضعف في نفسي،

ومحاولة تحويل نقاط الضعف هذه إلى نقاط قوة، ولا بأس أن أعبر عن جوانب الضعف، لا على سبيل الاستعراض ولا على سبيل التظاهر بالشجاعة والقوة، أو تكلف العفوية، لأنه المفترض أن تكون عفويًّا حتى في عفويتك.

* * * * *

الغضب المقدَّس

ربما تكون فيك صفة لا تعرفها أنت، لكن من يحيطون بك يعلمونها جيدًا، وليس عيبًا أن تكون فيك صفة ما، ولكن العيب أن تنكر ذلك ولا تسعى لعلاجه، فأول طريق للعلاج هو الاعتراف بنقطة الضعف.

علاج الغضب:

ولو أخذنا الغضب مثلا، لأنه من الصفات التي ذكرت كثيرًا في قصة سيدنا موسى، فإن خطوات علاج الغضب هي:

أولًا: الإقرار بوجود هذه الصفة.

ثانيًا: تجنب الحالات التي تعرضك للاستفزاز، فإذا علم الإنسان من نفسه أنه يغضب بسرعة، فيجب عليه أن يحرص على ألا يضع نفسه في المواقف التي تغضبه، كألا يدخل في إشكال مع شرطي، أو إشكال مع صاحب متجر، أو مع سائق تاكسي، أو مع طفله، أو غيره.

وأيضًا يمكنك أن تفوض غيرك للقيام ببعض الأشياء نيابة عنك إذا

كان أكثر فهما لها، وأكثر حنكة في التعامل معها، ولا تقحم نفسك في كثير من الأمور، وهذه تعلمتها من موسى وهارون، فموسى اقترح هارون وزيرًا، وشفع له عند ربه، وأصبح هارون بحكم لطفه يقوم بمهمات معينة تتناسب مع شخصيته.

وكذلك أنت، عندك زوجك وولدك، وصديقك، وجارك، وزميلك، وغيرهم، يمكنك الاستعانة بهم في كثير من الأشياء، فبعض الناس يقحم نفسه في كثير من التفاصيل، ونتيجة لذلك يكون ذا غضب، أو انفعال لهذه الأشياء.

ثالثًا: تحجيم الغضب، بمعنى أن النبي ﷺ ذكر أن الناس أربعة أقسام تجاه الغضب:

- فمنهم بطيء الغضب بطيء الفيء؛ لا يغضب إلا بصعوبة لكن إذا غضب لا يرضى إلا بصعوبة.
- ومنهم سريع الغضب سريع الفيء؛ يغضب سريعًا ويرضى سريعًا، وأنا أقرب إلى هذه النوعية، وليس معنى سرعة الفيء أن أرضى في اللحظة نفسها، لكن على الأقل بعد يوم أو يومين، فلو شتمك أحد، وأتاك أحدهم في اللحظة نفسها يصلح بينكما ويقول لك: هذا معذور سامحه، فإنك تتمنَّع وقتها، لكن بعد يوم أو أيام تهدأ نفسك، وتصبح مستعداً للصفح عن هذا الخطأ.

ولذا جاءت الرخصة في الهجر ثلاثة أيام، وحرم ما فوقها؛ لأن فترة

الانفعال قد يكون البعد فيها خير من القرب، أما بعدها فقد تكون النفس هدأت، وسكت الغضب.

- ومنهم الإنسان بطيء الغضب سريع الفيء؛ أي سريع الرضا، وهذا أجمل الحالات، وأنا أعتبر رسولنا ﷺ من هذا النوع؛ لأنه لا يحفظ عنه من حالات غضب إلا حالات محدودة جدًّا، وهو لا يغضب إلا لربه سبحانه، ومع ذلك سرعان ما يرضى كما في قصة الثلاثة الذين خلفوا، وكما في قصة غضبه ﷺ من أزواجه، وهي حالات معدودة ومحدودة ومعروفة الأسباب.

- ومنهم- وهو أسوأ الأقسام- ؛ سريع الغضب بطيء الرضا، وهذا كثيرا ما يحدث بين الأزواج والزوجات، كأن يتدلل الزوج في فترة الشباب على زوجته، ويغضب من أشياء كثيرة صغيرة، ويتوقّع أشياء كثيرة فيجد عكسها، فيغضب ويقاطع المرأة، وهي تحاول بشتى الوسائل، وهو يتمنع ولا يستجيب سريعًا، وأحيانًا يصل الأمر إلى الهجر، ولذلك نهى النبي ﷺ عن أن يهجر الإنسان أخاه فوق ثلاث، ولا يجوز للإنسان أن يتصرف بهذه الطريقة مع شريكة حياته ورفيقة دربه.

هذه أربع مستويات بمقدور الإنسان أن ينتقل من مستوى إلى مستوى، فإذا كنت سريع الغضب حاول أن تكون سريع الفيئة، بحيث إذا غضبت افتعل أي سبب للصلح؛ مثل شراء هدية، أو غداء في مطعم، وغيرها من الأساليب الكثيرة التي يعالج المرء بها نفسه من هذا الغضب بحيث لا يستسلم له.

الغضبُ الرساليُّ:

موسى -عليه السلام- كان يعاني حالة الغضب هذه، ولكنه الغضب الرسالي، فقائد بحجم موسى وتأثير موسى ومهمات موسى، لابد أن يتعرض لمثيرات تثير الغضب فيظهر انفعاله وغضبه، قال البردوني في هذا المعنى:

ما أصدق السيف إن لم ينضه الكذب وَأَكْذَبَ السَّيْفَ إِنْ لَمْ يَصْدُقِ الغَضَبُ[1]

بمعنى أن الغضب أحيانًا يجب أن يصدُق، وأن يكون غضبًا قويًّا إلهيًّا ربانيًّا، لله -سبحانه وتعالى- وموسى عنده هذا النوع من الغضب، والغضب عامةً منه جانب جِبِلِّيّ وغريزة، تجده في الإنسان وتجده في الحيوان، ومهمة هذا النوع من الغضب حفظ النوع الإنساني، والمحافظة على الجماعة، والمحافظة على الأمة، والمحافظة على الدين.

فموسى غضب عند قتل القبطي، وغضب على أخيه هارون، وغضب على قومه مرات عديدة، وغضب على السحرة عندما قال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، وغضب على فرعون عندما قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾، وغضب على قومه عندما دعا عليهم: ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، وغضب على هارون: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾.

فواضح جدًّا أن موسى عنده رصيد من هذا الغضب، لكنك حين تبحث عن حالات الغضب كلها لا تجده غضب مرةً واحدةً لذاته، فقائد مثل موسى، الغضبُ جزء من مهمته، ومن نجاحه في الإدارة، وقوته وقدرته، ولحكمة ما جعل الله تعالى معه أخاه هارون وزيرًا.

---

(1) «ديوان عبد الله البردوني» (624/1)

فغضبُ موسى غضبٌ رساليٌّ، وليس غضبًا شخصيًّا، فالغضب الشخصي أناني، حيث يغضب لنفسه، لأن أحدًا أساء إليه في ظنه، أو لم يعطه قدره، وينبغي أن نحذر جميعًا من هذا الغضب، الذي ألاحظه من احتكاكي بالناس؛ غضب الفرد لذاته، أو لأسرته، أو لمدينته أو لشعبه، إذا سمع من يعتقد أنه أساء لأيٍّ منهم، لكن لا تجد عنده الغضب لله، ولا لرسوله ﷺ، ولا تجد الغضب للمعاني الأخلاقية والقيم الإنسانية؛ مثل الغضب لضياع العدل، أو لضياع الأخلاق والمروءة، أو للعدوان على الضعفاء... إلخ.

كظم الغيظ:

مدح الله تعالى كظم الغيظ: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾، وأثنى عليه النبي ﷺ في أحاديث كثيرة جدًّا، وجعل الجنة جزاءً لمن كظم غيظه، وهو قادر على إنفاذه[1].

وكظم الغيظ معنى لطيف جدًّا، فالغيظ هو الغضب، لكن كأنه شيء يفيض من الإنسان من شدته وكثرته، ولذلك قال الله تعالى عن النار: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، تكاد تتقطع من شدة الغيظ.

وكظم الغيظ يعني ألا تعبر عن سخطك، وقد جربته في بعض الحالات، خاصة عندما يثيرك موقف، فلا تعبر عن غضبك، ومرر الموقف، وربما لا يدري الناس أنك تأثرت أو انزعجت، وهذا يسهل لك الخروج من الغضب بسرعة، وبعض الناس قد يكون على العكس من ذلك؛ لا يرتاح إلا إذا عبَّر عن غضبه بشكل من الأشكال، و﴿ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾.

(1) كما في حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه عند أبي داود (4777)، وابن ماجه (4186).

الغضب المقدَّس:

هناك غضب مقدَّس، وهو الغضب الصادق، الغضب الذي ليس انفعالا وقتيًّا، بل شعور مستمر، قائم ودائم في نفس الفرد، أو في نفس الجماعة يفعل فعله بأناة.

- الغضب المقدس..
- يحملك على الصبر أولًا.
- ويحملك على رفض الواقع الفاسد، مهما كانت المبررات والمسوغات والعوائق.
- ويحملك على التخطيط للمستقبل دون عجلة.
- ويحملك على معانٍ رائعة وجميلة.
- ويحملك على الانتصار للحق والانتصار للمظلوم، والوقوف إلى جانب الضعيف والغريب والعاجز.
- الغضب المقدس ليس حالة انفعال وفوران عابر، بل الغضب المقدس هو شعور داخلي بطيء ولكنه يصبغ شخصية الإنسان.

وهذا الذي تلاحظه في شخصية موسى، ليس غضبًا في حالات محددة معدودة ذكرها الله تعالى في كتابه، وإنما هو شيء مطرد في سيرته كلها، وقد حاولت أن أبحث في سيرة موسى عن حالاتٍ ضَحِكَ فيها، مثله مثل غيره من الناس، ولكني لم أجد أحدًا روى هذا المعنى، مما يدل على أن الضحك كان قليلا في حياته؛ لأن موسى كان مهمومًا ومشغولًا بقضية كبرى.

* * * * *

إِنِّي أَخَافُ

أنا أخاف بشدة، وأخاف من التصريح بالخوف؛ لأن الإنسان لا يريد أن يظهر ضعفه عند من يعرفه، وخاصة القريبين منه؛ مثل طفله، أو زوجته، أو قريبه.

الخوف من شِيَم النفوس:

وخوف الإنسان شيء طبيعي، فالإنسان يخاف على أهله، يخاف على ولده، يخاف على نفسه، يخاف من المفاجآت، يخاف من الأعداء، يخاف على دعوته، يخاف على أمته، فهذا شيء فطري، وشيء انتمائي، وإذا خلا الإنسان من الخوف، فقد خلا من الانتماء.

فوبيا الخوف:

ويجب أن نفرق بين الخوف الطبيعي، والخوف الذي يصل إلى فوبيا. ذات مرة ركبت سيارة صغيرة وأمامي حافلة لندنية ذات دورين، وفجأة جاءني هاجس تصورت فيه لو انفلتت كوابح الحافلة رجعت علينا ودعست عشرين سيارة وراءها، لكانت كارثة ضخمة، فأدركت أن الذين يعانون فرط تخوّف،

دائم مُوَسوسون مهووسون بمخاوف ليس لها وجودٌ، ويصعب وقوعها عادةً، ولا ينبغي على الإنسان أن يبالغ في الخوف منها.

مخاوف موسى:

وأنبياء الله تعالى يعلِّموننا التعبير عن المشاعر بشفافية، فقد تكررت كلمة الخوف في قصة موسى بصورة ملحوظة، لدرجة أن هناك كتابًا للدكتور عبد العزيز الحربي بعنوان "الخوف عند موسى"، وعندما تقرأ سيرة موسى -عليه السلام- في القرآن الكريم تلاحظ أن كلمة الخوف هي أكثر كلمة تكررت؛ سواءً من موسى، أو من خطاب الله تعالى له، فهو يقولها أمام ربه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾، ويقول لفرعون: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾، فكان -عليه السلام- دائمًا يعبِّر عن حالة خوف.

ويجب أن نفرِّق بين الخوف والجبن، فموسى رجل مصلح وقائد، والقائد الذي لديه مشروع إصلاحي، وخطة طويلة يقع عنده خوف عليها، كما كان النبي ﷺ في معركة بدر أول مواجهة بين المسلمين والمشركين قائم في العريش، يرفع يديه إلى ربه سبحانه بإلحاح، ويتضرّع بين يديه، ويقول: «اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لاَ تُعْبَدُ فِي الأَرْضِ»، حتى أشفق أبو بكر على النبي ﷺ وقال: «**يا رسول الله كفَاكَ مُناشدَتَك ربَّك، فإنَّ الله منجزٌ لكَ مَا وعَد**»[1]. فقد كان هذا خوفًا في موقفٍ فاصلٍ.

ومن مواقف خوف موسى أنه لَمَّا رأى العصا وانقلبت حية، خاف وتراجع وولَّى مدبرًا مع صعوبة الموقف، فقال له الله -سبحانه وتعالى-: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي

(1) أخرجه مسلم (1763) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

﴿لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾. المرسلون لا يخافون عندي، واستثنى ربنا سبحانه: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وهذا إلماح إلى موسى عليه السلام.

وهذا يقودنا إلى سؤال مهم، وهو ما سبب الخوف عند موسى عليه السلام؟

السبب الأول: وجدت بعض الباحثين يرجعون خوف الرجل إلى الأم؛ فالجنين يستقيه من أمه وقت الحمل، وكانت أم موسى حال الحمل خائفة عليه من فرعون؛ لأنه سيولد في السنة التي يُقتل فيها أطفال بني إسرائيل، فكانت خائفة من ولادته وانكشاف أمره وقتله، وهذا يظل احتمالًا مطروحًا، مع أننا دائمًا ننظر إلى أنبياء الله ورسله على أنهم استثناء لا تنطبق عليهم القواعد، والسنن والأسباب التي يتكلم الناس فيها.

السبب الثاني: ربما حالة الاستخفاء التي حدثت لموسى بعد ما قتل الإسرائيلي، وهذا الاستخفاء قد يصنع عند الإنسان تخوُّفًا، ولذلك قال ربنا - سبحانه وتعالى- لموسى: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾، فكأن المقصود موسى لأنه لما قتل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾.

وبعض الناس يدافعون عن نبي الله موسى بأنه لم يفعل خطأ، والرد أن موسى اعترف أمام ربه بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾، واعترف أيضًا أمام فرعون، لكن هذا وقع منه قبل النبوة، وهذا الفعل له أسبابه المعروفة.

وقد غفر الله تعالى له: ﴿فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ قد غفرت لك يا موسى ورحمتك فلا تخف، وبعدما قال الله له ذلك لم يعد موسى خائفًا من أحد، فهو فقط حذِرٌ يقِظٌ لدعوته.

السبب الثالث: من أسباب الخوف الأسباب الفطرية التي تحمل طفلًا صغيرًا

مثلًا على ألا يرمي نفسه من شاهق، أو لا يرمي نفسه في النار، أو لا يمسك الأشياء الحارة، وهو الذي يحمل الناس على الحذر، وعلى اليقظة، وعلى الاستعداد، فهذا خوف فطري وطبيعي.

الخوفُ المرذول:

ويكون الخوفُ سلبيًّا حينما يتعدَّى حدوده، وحينما يكون دون ضوابط، وحينما يكون خوفًا من الناس، ولا يكون خوفًا من الله، ولذلك عاب الله -سبحانه وتعالى- المنافقين بأنهم: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ ﴾، وقال سبحانه: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

الخوف مثله مثل أي مزاج نفسي آخر ينبغي أن يكون معتدلًا، فنقصه مشكلة وزيادته مشكلة، واعتداله لا يعني أنه يجب أن يكون دائمًا في مستوى واحد دائمًا، فأحيانًا تدعو أسباب إلى زيادة الخوف؛ كأن يكون عندك مريض فيجب أن تخاف عليه، وتستعجل في عملية الإسعاف.

فليس الخوف عند أحد على وتيرة واحدة دائمًا؛ حتى الخوف من الله -سبحانه- يرتفع ويعتدل، فالإنسان إذا وقع في معصية فيجب أن يرتفع منسوب الخوف عنده بحيث يحمله على سرعة التوبة، فيجب أن يخاف من الله، ومن أن يطمس على قلبه بسبب هذا الذنب، والخوف أن يُختم له بسوء، فهذه من الحالات التي يحمد فيها ارتفاع منسوب الخوف.

وفي حالات يرتفع فيها منسوب الرجاء، منسوب الحب، وهذا شيء طبيعي عند كل إنسان، ولكن الأنبياء على وجه الخصوص هم السادة والقادة في هذا السياق.

* * * * *

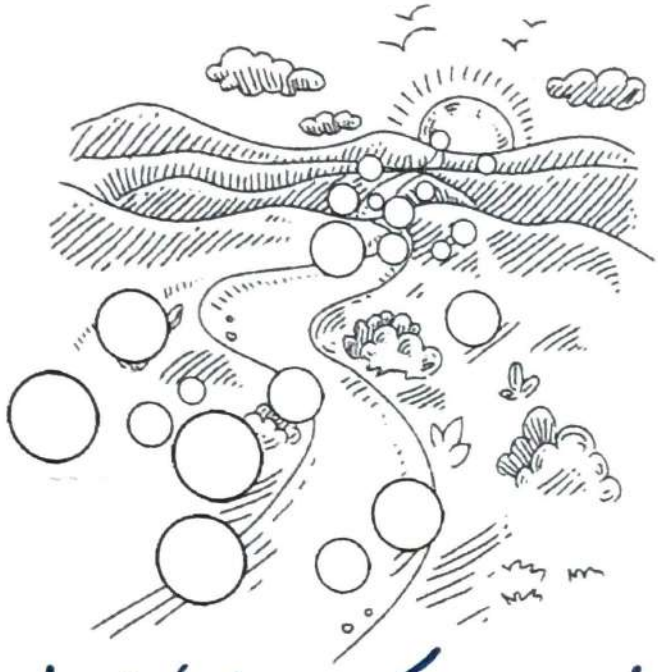

في موكبِ الأنبياءِ

صُحبةُ محمدٍ ﷺ

ذُكِر موسى -عليه السلام- في القرآن (136) مرة، وهذا أكبر ذكر، ولم يُذكر نبيٌّ ولا أحد من البشر في القرآن مثلما ذُكر موسى -عليه الصلاة والسلام- حتى قال بعض العلماء: كاد القرآن أن يكون كله حديثًا عن بني إسرائيل[1]، فقد ذُكر في قصار السور مثل سورة النازعات: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾، كما ذُكر في طوال السور، فضلًا عن سورة خاصة، وهي سورة القصص.

وقصة موسى في القرآن الكريم مبسوطة بسطًا كاملًا، نقلت لنا أدق التفاصيل منذ ولادته إلى نهاية حياته تقريبًا، ولكن هناك جوانب غير معروفة، وهذا هو الفرق بينه وبين نبينا ﷺ، الذي عرف أصحابه تفاصيل حياته سواء ما ذُكر منها في القرآن، أو ما ذُكر في السنة.

بين نبيين.. شبَهٌ واختلافٌ:

هناك تقارب شديد بين موسى -عليه السلام- ومحمد ﷺ منها:

- موسى نبي ورسول ومن أولي العزم من الرسل، ومحمد ﷺ كذلك.

(1) ينظر: «معترك الأقران» (278/2)، و«الإتقان» (199/1).

- موسى -عليه السلام- نبي بُعث بكتاب وهو التوراة، ومحمد ﷺ بُعث بكتاب وهو القرآن الكريم؛ قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾، يعني القرآن الكريم.
- موسى -عليه السلام- رسول لأمة كبيرة، بها كثير من الأتباع في الماضي وفي الحاضر، والنبي ﷺ كذلك عنده أمة كبيرة ضخمة، حتى إن هناك تنافساً، فالنبي ﷺ قال: «**أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ**». **قَالَ فَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ**: «**أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ**». **قَالَ فَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ**: «**إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ..**»[1]. يعني أكثر من أي أمة أخرى.

وموسى -عليه السلام- كان عنده الإحساس نفسه، فقد جاء في صحيح البخاري في قصة الإسراء والمعراج أنَّ النبي ﷺ لما مرَّ بموسى قال له: «**مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ**»، وفرح به، ثم لما غادر بكى موسى -عليه السلام- فسأله ملَكٌ: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلامًا -لأنه صغير السن بالقياس إلى الأنبياء السابقين الذين كان الواحد منهم يُعمّر مئات السنين- بُعث بعدي، يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي[2].

فموسى -عليه السلام- استحضر مشاهد مؤلمة جدًّا وتستدعي البكاء فعلًا، أنه عاش مع بني إسرائيل فترة طويلة جدًّا من اللف والدوران والتلوّم

(1) أخرجه البخاري (6528)، ومسلم (221) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(2) أخرجه البخاري (3207)، ومسلم (164) من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

والتهرب.. ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾، ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾، ﴿لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ﴾، قصة طويلة، استحضر موسى كل هذه الآلام وكل هذه المعاناة، ثم وجد أن الله - سبحانه وتعالى- فضّل وكرّم محمدًا ﷺ وأمته، فكان أتباعه أكثر، وكان هو خاتم الأنبياء والمرسلين.

وهذا على سبيل الغبطة، وليس فيها أي معنى من المعاني السلبية فموسى في السماء، منزه عن أي معنى من معاني الحسد، وهو نبي مرسل وصدِّيق ووجيه وكليم، فكل المعاني السلبية منتفية عنه.

- موسى جاهد وقاتل الفراعنة، ومن بعدهم من العمالقة والآراميين وغيرهم، والنبي ﷺ أيضًا بُعث بشريعة الجهاد كما هو معروف.
- موسى هاجر من مصر إلى مدين ثم إلى الأرض المقدسة، والنبي ﷺ أيضًا هاجر من مكة إلى المدينة ثم ردّه الله تعالى إلى معاد.
- موسى ابتُلي بالمنافقين، مثل السامري الذي ادّعى موته، وقارون الذي أتى ببغيٍّ لتدّعي عليه الفاحشة، والنبي ﷺ ابتُلي أيضًا بالمنافقين في المدينة الذين آذوه في عرضه، من خلال الوقيعة في الصديقة بنت الصديق عائشة وحادثة الإفك التي روجوها.

والطريف أن بعض المنافقين في المدينة كانوا من اليهود، وكانت حركة النفاق حركة يهودية في الأصل، فالذين كانوا يزعمون أنهم أتباع موسى هم الذين صنعوا الأذى والمتاعب للرسول ﷺ، بتظاهرهم بالإسلام، وإبطان الكفر من أجل هدم الإسلام من الداخل.

- موسى ابتُلي بفرعون، ومحمد ﷺ أيضًا ابتُلي بفرعون هذه الأمة؛ أبي جهل، الذي نزل فيه قول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾.

إذن هناك أوجه شبه بين شخصية موسى، وتاريخ موسى، وأمة موسى، وأمة محمد ﷺ، ويتفق الأنبياء كلهم ويُجمعون على العقيدة التوحيدية التي بُعث بها جميع المرسلين: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾.

بقيَّة قوم موسى:

الفراعنة الذين بُعث موسى إليهم انتهت شخوصهم، بينما بقيت آثارهم، فثلث الآثار العالمية في مصر، فهم باقون بأسمائهم، وبمنهجهم وطغيانهم، وبآثار وجودهم؛ بالمدافن، بالأهرامات، والمسلات والمقتنيات التي خلّدوها من ورائهم وازدحمت بها المتاحف.

وكذلك بنو إسرائيل موجودون وباقون بآثارهم، باقون بالنبوات، باقون بالكتب السماوية، باقون بالقصص التي حكاها الله تعالى عنهم في القرآن الكريم.

ومن مقاصد ذكر قصة موسى أمران:

المقصد الأول: أن يصبر الرسول ﷺ كما صبر موسى، وأن يسرِّي عنه مما يقع له من همٍّ بسبب سوء التلقِّي من قومه، والنبي ﷺ لما أوذي يومًا من الأيام وقيل له: «**هذه قسمة ما أُريد بها وجه الله**». تذكَّر الأذى الذي واجه موسى من بني إسرائيل فقال: «**رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى مُوسَى، لَقَدْ أُوذِي بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ**»[1].

(1) أخرجه البخاري (3150)، ومسلم (1062) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وحدث من الصحابة أنهم لما مروا بالمشركين، وكانوا عند شجرة يقال لها ذات أنواط، يُعلقون عليها سيوفهم، ويعتقدون فيها نوعًا من الكرامة أو البركة،قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ. فقال لهم النبي ﷺ: «سُبْحَانَ اللَّهِ! هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: ﴿اجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»[1].

وكان من أمر بني إسرائيل أنهم قالوا لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، لما عبروا البحر فمروا بقرية في طريقهم وكان أهلها يعبدون عجلًا، وبنو إسرائيل تعودوا على عبادة العجل في عهد الفرعون، فأثارَ ما رأوه في القرية من طقوس ورقص حول العجل أشواقَهم وحنينَهم، وتذكروا الماضي فحنوا، وقالوا يا موسى: ﴿اجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، إذ اعتبروا هذه ميزة، ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾. وإن مما يحزن أنْ يقضي موسى -عليه السلام- عمره الطويل وهو يدعو بني إسرائيل للتوحيد ولعبادة الله، وبعد هذا الجهد الطويل ونجاتهم من فرعون، ورؤيتهم الآيات البينات يطلبون منه هذا الطلب الوثني: ﴿اجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾.

والمقصد الثاني: أن الله -سبحانه وتعالى- يحذِّر هذه الأمة مما فعله بنو إسرائيل مع موسى حتى لا يفعلوا مثله ولا يقعوا فيه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾.

(1) أخرجه الترمذي (2180)، والنسائي في «الكبرى» (11121) من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه.

أيهما أفضل:

فيما يتعلق بالتفضيل بين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، فقد «اسْتَبَّ رَجُلَانِ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَرَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ، قَالَ المُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى العَالَمِينَ، فَقَالَ اليَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى العَالَمِينَ، فَرَفَعَ المُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَلَطَمَ وَجْهَ اليَهُودِيِّ، فَذَهَبَ اليَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ، وَأَمْرِ المُسْلِمِ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ المُسْلِمَ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَصْعَقُ مَعَهُمْ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ العَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ، فَأَفَاقَ قَبْلِي أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللَّهُ»**[1]. يقول النبي ﷺ أنه وجد موسى قد بُعث قبله، لا يدري هل موسى لم يُصعق أصلًا، واكتُفي بالصعقة الأولى لما طَلب أن يرى ربه فصُعق، أم أنه قد بُعث قبله فتكون هذه فضيلة.

وهذا من السمو النبوي لرسول الله ﷺ؛ إذ أظهر خصيصة لموسى، وهي خصيصة التكليم من قِبَل الله تعالى، وهذا لا يعني أن موسى أفضل من محمد ﷺ.

ففي الجملة النبي ﷺ أفضل من موسى، وأفضل من جميع النبيين، كما قال ﷺ: **«أنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر»**[2]، ولكن هذا لا يمنع أن يكون لموسى فضيلة يتم إظهارها في وقت من الأوقات، لئلا يكون السياق

---

(1) أخرجه البخاري (2411)، ومسلم (2373) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. والبخاري (4638)، ومسلم (2374) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، نحوه.

(2) «المستدرك على الصحيحين» (82).

كأنه منافسة بين الأتباع تجعل فئة يحتقرون النبي الآخر، فالمسلم الذي لا يؤمن بموسى أو ينتقص منه ليس بمؤمن، فنحن نؤمن بموسى ونعظّمه كما نؤمن بنبينا محمد ﷺ ونعظّمه، ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾.

* * * * *

صُحبةَ يوسف

العلاقة بين موسى ويوسف عليهما السلام، واختلاف النهج الإصلاحي بينهما وسببه، فيوسف هو أصل بني إسرائيل في مصر، وهناك علاقة نسب بينهما؛ فكلاهما من نسل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، فمرجعهم إلى يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام.

أوجهُ الشَّبَهِ: فمن أوجه الشبه بينهما:

أن كُلاً منهما نبي ورسول، وكلاهما من بني إسرائيل، وكلاهما كانت حياته وحركته، ودعوته وجهده وجهاده في مصر.

وكلاهما ذو ميزة مهارية وأخلاقية؛ فيوسف -عليه السلام- قال عن نفسه: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾، استثمر حفظه وعلمه في التغيير والإصلاح وخدمة الناس، ونفعهم من الناحية الاقتصادية، فضلًا عن الناحية العقائدية والأخلاقية بواسطة السلطة.

وموسى قوي أمين كما قالت عنه الفتاة: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾، عنده القوة ولديه الرغبة في الإصلاح أيضًا.

اختلاف بيئة الدعوة:

سورة يوسف كلها خالصة لقصة يوسف في مصر، ومع ذلك لم يرد في السورة اسم فرعون مطلقًا، بينما ورد عشرات المرات في القرآن الكريم، وإنما كان يرد اسم الملك، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ﴾، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ﴾، ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾، فكان ذلك مثار استغراب بعض المفسرين والمتأملين في القرآن الكريم، لماذا في سورة يوسف يسميه الملك، وفي بقية السور كلها يسميه فرعون؟

والإعجاز في هذا لم يُكتشف إلا في أواخر القرن التاسع عشر حينما فكوا رموز «حجر رشيد»، في مصر، وهو عبارة عن دعاء مكتوب بعدة لغات منها اللغة الهيروغليفية، وبالمقارنة كشفوا سر هذه اللغة، وتعرّفوا إلى جزء من تاريخ مصر، وأنه في وقت يوسف وما قبله لم يكن الحاكم يسمى فرعون، بل كان يسمى الملك، وكان الحكم في عهد يوسف في قبائل الرعاة «الهِكْسُوس»، الذين جاؤوا من أصول آسيوية، ويقال بأنهم لم يكونوا محبوبين من المصريين، لذلك قاموا ضدهم بثورات متواصلة، وبعد هذه الحقبة جاءت الأسر الفرعونية المتأخرة في زمن موسى وما قبله وما بعده، فأصبحوا يسمون الفراعنة.

وفي عهد يوسف -عليه السلام- كان هناك مجال للأخذ والعطاء، ولذلك لما دعا الملك يوسف -عليه السلام- من السجن رفض المجيء وقال للرسول: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، لن أخرج، وعندما طلبه مرة ثانية، وجد أن الفرصة مواتية فقال للملك: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، لأنهم بصدد مواجهة كارثة ومجاعة، فيحتاجون إلى قائد عليم مدبر مثل يوسف عليه السلام.

سُجن يوسف -عليه السلام- مدة مؤقتة: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾، ولعل ذلك من أجل تهدئة بعض الشائعات، بينما في قصة موسى -عليه السلام- يقول فرعون: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾، أي سجن مدى الحياة، و﴿مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾، معناها أن السجن مليء بالسجناء، وأنت ستكون من ضمنهم، ولا أحد يهتم بك ولا أحد يعرفك، ولا أحد يلتفت إليك.

لأن نظام الحكم الفرعوني في عهد موسى -عليه السلام- كان يعرف بالجبروت، وخاصة الفرعون رمسيس الثاني الذي نشأ عنده موسى، فهو طاغية جبار ومقاتل، وتوسّع في الحكم وكان له هيبة وقوة، كان طاغية لا مجال للحوار والتفاهم معه، وصار ابنه من بعده على طريقته في الطغيان، فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، و﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾.

اختلاف الصفات الشخصية:

يوسف -عليه السلام- تميز بالصبر والاحتمال، وعاش فترة طويلة مثل المستعبد في قصر العزيز، ولما أمرته -امرأة العزيز- فقالت له: ﴿ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ﴾، خرج، بينما لو كان هذا الأمر لموسى ما نفذه، فلكل إنسان طبيعته وكلهم مهتدون.

ويوسف -عليه السلام- تعامل مع مصائبه بصبر، سُجن وصبر، وأُشيعت ضده الشائعات وصبر، ثم جاءته فرصة أن يُغيّر بعدما اقترب من السلطة، وأصبح أشبه ما يكون برئيس وزراء أو حاكم فعلي لمصر، ونجا بمصر في ظروف عصيبة صعبة.

وقد أفلح يوسف في الإصلاح الاقتصادي، ولكن لم يتحول المصريون إلى الوحدانية مع دعوته لهم وإحسانه إليهم، بدليل أن موسى جاء بعد فترة طويلة، وقال لهم: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾، و(هَلَكَ) هنا على حد تعبيرهم هم، وكذلك قالوا: ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ معناه أنهم لم يؤمنوا به ولم يحولهم من الشرك إلى التوحيد، ولكنه نفعهم ونشر فيهم القيم الجميلة، ونفع بني إسرائيل، وأصبحوا شريحة من شعب مصر، وإن كانوا لا يسمون مصريين؛ لأنهم من جنس آخر كما هو معروف.

أما موسى -عليه السلام- فيتميز بالصرامة والقوة، والوضوح والمباشرة، ولذلك كان موقفه موقف المقاتل المحارب الثائر، كان أسلوبه أسلوب مواجهة ومقارعة، وثورة على الظلم وعلى الباطل، وقال: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، ورفض قصر فرعون، وكان بالإمكان أن يُسمى موسى الأمير؛ لأن فرعون وزوجته تبنياه وعاش في قصورهم وله مخصصاتهم، ولكنه رفضها كلها واختار الطريق الآخر، طريق الغربة، والبُعد، والاستخفاء، ثم طريق المواجهة والصدام والخروج، حتى أجرى الله -سبحانه وتعالى- على يديه ما أجرى.

استراتيجية الخَضِر:

ويمكن مقارنة نهج يوسف وموسى بنهج الخضر -عليه السلام- فقد قال: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾، فالخضر لم يكن قادرًا على أن يتصرف مع ذلك الملك الظالم؛ لأنه نبي وليس برسول، وإمكاناته في التغيير تعتمد على الجانب الفردي،

وليس على الجانب العام الشعبي، ربما يُنقذ مساكين أو يُنقذ والدَين، أو يُنقذ أطفالًا صغارًا من أجل أبويهم وما أشبه ذلك، لكنه لا يستطيع أن يواجه ظالمًا، فقد سعى في حماية السفينة والمساكين الذين يملكونها، ولكن ليس أكثر من ذلك، ففكرة الملك الظالم الذي يأخذ كل سفينة غصبًا لم يرد من الخضر أن يقوم تجاهه بشيء ما.

وهذا يؤكد أن الأنبياء كلهم جاؤوا بالتغيير، الذي أساسه التوحيد، تغيير عقائد الناس، وعبادة الله وحده لا شريك له، ولكن يتبع ذلك أيضًا التغيير العام في حياة الناس، حتى التغيير في الجانب الاقتصادي، وهذا واضح جدًّا.

إذن من الدروس العملية أن كل إنسان ينبغي أن يحدد كيف يُغير، ولو أن يغير كما غيَّر الخضر؛ أن يحفظ حق المساكين، أو يغير من خلال مشورة، وهذا التغيير يعتمد على قراءة الإنسان للواقع الذي يحيط به، وعلى قراءته لشخصيته هو.

فهكذا يعلمنا موسى، ويعلمنا يوسف، ويعلمنا الخضر: أن كل إنسان يستطيع أن يرسم له خريطة للتغيير ولو كانت جزئية أو محدودة وفق إمكاناته هو، ووفق الظروف التي حوله.

* * * * *

أسرار الخضر

قصة الخَضِر قصة عجيبة، ولم تُذكر في القرآن إلا في موضع واحد في سورة الكهف، وبداية القصة أن موسى -عليه السلام- كان يخطب في بني إسرائيل، والمعهود دائمًا في لغة موسى هو التواضع، فيقول: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، وهكذا، لكنه في تلك المرة سأله بنو إسرائيل: **من أعلم الناس؟ فقال: أنا.**

فأراد الله -سبحانه وتعالى- أن يؤدبه على ذلك؛ لأن الذي يقول «أنا» هي شخصيات مثل فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾، وقارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾، والضالون من بني إسرائيل أتباع موسى، أصحاب الأنانية الدينية، إذ يعتقدون أنهم أفضل الناس، وأنهم أبناء الله وأحباؤه: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾، وأنهم أهل الجنة: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾، فعتب الله على موسى، وأراد أن يؤدبه.

إلى مجمع البحرين:

فأوحى الله إليه أنَّ لي عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك، وبإمكانك أن تذهب إليه وتقابله، والأقرب أن مجمع البحرين يقع في الأردن، وقد يكون عند

بحيرة طبرية في فلسطين، أو في مكان قريب منها، فهو قريب من الأرض المقدسة، وهذه القصة كانت في آخر حياة موسى؛ لأنه قال: ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾؛ أي أنا مستعد أن أمضي إلى أن أصل مهما بذلت من الوقت.

قال موسى لفتاه «يوشع بن نون»، والله -سبحانه وتعالى- سماه فتاه، وهو تعبير جميل، فهي تعني أنه كان غلامًا له، لكنه ليس عبدًا له، وإنما هو مثل التابع، وفي الوقت نفسه هو تلميذ وأصغر سنًّا، ويوشع بن نون صار نبيًّا فيما بعد، وقاد بني إسرائيل.

قال موسى ليوشع أنه سيرحل في طلب العلم، وسوف يصل لبغيته حتى لو أمضى حُقُبًا حتى يصل إلى هذا الرجل، والقصة فيها مغامرة وغرابة؛ لأنها رحلة لمكان غير معين بالتحديد، ولرجل مواصفاته غير معروفة، ولا يوجد من يدل عليه غير علامة، وهذه العلامة هي أن تدب الحياة في السمكة التي يحملونها في المِكْتل (وهو قُفة من النخل) الذي يحملونه معهم، ويقطع اليابسة، ويمشي إلى البحر.

ولما حدث ودبَّت الحياة في الحوت رجع موسى وحدَّد المنطقة التي يوجد فيها الخَضِر، ولما وصل وجد رجلا مسجَّى كأنه نائمٌ، فقال له: السلام عليكم. فالتفت الرجل، وقال: أنىَّ بأرضك السلام؟[1] يعني هذه المنطقة ليس فيها أحد يسلِّم؛ ليست منطقة سلام، وليس معتادًا فيها السلام، فعرف موسى أنه هو الرجل المطلوب، ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾. سأله موسى بتلطُّفٍ وأدب.

(1) كما في حديث أبي بن كعب رضي الله عنه عند البخاري (122)، ومسلم (2380).

فأنا أتعلم من موسى في هذا الموقف كيف أتأدب مع أستاذي، أو شيخي أو من أتعلم منه، وكيف أتعلم حتى من إنسان قد يكون أقل مني في أشياء، لكنه أعلم مني في أمور أخرى.

وقال: (أَتَبِعُكَ)، ما قال: (أَتْبَعُك)؛ فهناك فرق بين «أتّبع» و«أتْبَع»، فالاتباع فيه بصيرة وفيه تلق وتعلم، ومحاورة، أما «أتْبَعُك» فمعناه أنه سوف يمشي إلى أن يصل من غير اعتبار ونظر وتعلم.

﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾، لا أطلب كل العلم الذي تملكه؛ ولكن أنا أقبل أن تعلمني القليل من علمك، قال الخضر: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، نمط العلم الذي أملكه فيه صعوبة، وفيه أشياء صادمة لك، وغير مألوفة لديك، ولذلك قد تكون مفاجئة فلا تصبر عليها، فوعده موسى وقال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾، فوضع الخضر شرطًا، وقال: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾، الصبر ضروري للوصول إلى المعرفة، والخضر أكّد عليه، فهو شرط والعلماء يقولون: الشرط أملك؛ عليك أم لك، ويجب الوفاء به؛ أي الشرط يملك الإنسان إذا وقعت المشارطة عليه، ونحن نقول: إن كان هناك شرط كان هناك سلام.

أخرقتها؟!

وأول حادث وقع عندما ركبوا في السفينة دون أجرة، أن أخذ الخضر لوحًا منها وقلعه، فلم يصبر موسى؛ لأنه ثائر على الظلم والفساد، فقال مستغربًا: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾، أناس أركبونا دون أجرة يكون هذا جزاؤهم منا؟

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾، أي فعلت شيئًا صعبًا، فذكّره الخضر بالعهد، فقال موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾، فكان الاعتراض الأول من موسى نسيانًا.

أقتلتها؟!

الحادثة الثانية أنهم كانوا يمشون في الطريق فوجدوا صبيانًا يلعبون، فأخذ الخضر غلاما من بينهم وقتله، وهذه كبيرة؛ فأخذت موسى الحمية الدينية، فقال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾، كيف تقتل نفسًا زكية بغير نفس؛ فإنه لم يقتل أحدًا حتى تقتص منه، تساءل وهو لا يعرف إن كانت النفس زكية أم لا، لكن هذا هو الظاهر؛ لأنه طفل دون البلوغ، وإن كان الكلبي قال: كان بالغًا يقطع الطريق[1]، لكن الجمهور على أنه طفل دون البلوغ، ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ منكرًا.

وهذه هي المرة الثانية، فقال الخضر له: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؛ أنا أخبرتك بهذا، فتذكَّر موسى الشرط، وقال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾؛ إذا تكرر هذا مني فأنت في حلّ من صحبتي.

وأتعلم من موسى هنا أدبًا من آداب الصحبة، سواء كانت صحبة للاستفادة من علم بعضهم أو من أخلاقهم، أو من تجاربهم، أو من تدينهم، أو من صلاحهم، أو من سلوكهم، أو من عاداتهم الحسنة، أو من معلوماتهم، وهو وجوب اللطف في الاعتذار عن الخطأ، وعُذر الطرف الآخر حينما يصل الأمر إلى منتهاه: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾.

---

(1) ينظر: «تفسير القرطبي» (21/11).

دون أجرٍ؟!

وتأتي الحادثة الثالثة؛ وهي أنهم دخلوا قرية في أهلها لؤم وبخل، فلم يضيِّفوا موسى والخضر، فوجد الخضر في القرية جدارًا يوشك أن يسقط فدفعه بيده فأقامه بمعجزة إلهية، فصار عند موسى نوع من العتب؛ لأن الحادثة هذه المرة ليس فيها إغراق ناس ولا فيها قتل غلام، ولكن فيها فعل شيء غير الأولى، يعني ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾؛ لو أخذنا أجرًا عليه لأنهم لم يضيّفونا.

وكانت هذه هي النهاية، ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

جلاءُ الخَفَاء:

وبدأ يفسر له سبب ما رآه ولم يصبر عليه:

أما قصة السفينة، فالخضر -عليه السلام- يعرف أن اللوح الذي نزعه لن يغرق السفينة، ولكن سيكون حماية لها من ملك ظالم كان أمامهم يأخذ السفن الحسنة غصبًا، فأراد أن يرى في السفينة عيبًا فيتركها، فالظاهر أن فعله إتلاف للسفينة، وهو في الحقيقة حفاظ عليها، فهو داخل في باب فعل مفسدة لتجنب مفسدة أكبر منها.

وكأن هذا فيه إلماح -والله تعالى أعلم- لقصة موسى، حيث ألقته أمه في البحر مثل هذه السفينة، ومثلما خاف موسى على هؤلاء الناس ألقته أمه في البحر في تابوت خائفة عليه، وحفظه الله تعالى بحفظه، ففيه لفت نظر موسى إلى أن هذه هي القصة التي حدثت لك ولكن بشكل آخر.

وأما تفسير قتل الغلام، فقال: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾، أبوه وأمه من الصالحين الأتقياء، وهذا الغلام طبع كافرًا فهو فاجر بجِبلَّته وبطبيعته وبتوجُّهه في بداياته التي يعيشها الآن، فهو فاسد وفيه طغيان.

وهذه تُذكّر موسى بشيئين: الأول أنه قتل رجلًا من القبط لما وجد رجلين يقتتلان ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾، والآخر: هناك سر إلهي وراء القتل الذي قمت به أنت يا موسى، مثل السر وراء القتل الذي قام به الخضر؛ فالقتل الذي أحدثته أنت يا موسى كان فيه جوانب انتصار للمظلومين، كما أنه أحدث تغيرًا وانقلابًا في حياتك، والسر في قتل الغلام هو أنه لو عاش لأرهق والديه طغيانًا وكفرًا.

أما تفسير الحادثة الثالثة: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾، ففيها رحمة بالغلامين والأب الصالح، فاللهِ تعالى رحم أولاده من بعده، وهي أيضًا قريبة الشبه بقصة موسى مع أهل مدين؛ لأن أهل مدين لم يضيّفوا موسى في البداية، وهو رجل غريب وجائع، ومع ذلك لما وجد فيها الفتاتين وعرف حالهما ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، فأنت يا موسى عملت مثل الذي عمله الخضر، سقيت للفتاتين دون أجر في قرية أو مدينة لم تقم بضيافتك.

وفي قصة الخضر معالم عظيمة، وإدراك السر الإلهي وراء الأشياء التي لا نعرف نحن حِكَمِها، وكثيراً ما نتساءل عن حوادث يسلم منها ناس ويعطب

ناس، وتسبب فواجع بأطفال ونساء وشيوخ، وكوارث تحدث في بلاد؛ كل هذا يجعل الإنسان يتساءل بينه وبين نفسه عن أسرارها، وقصة الخضر هذه تنبه الإنسان إلى حكمة الله وإلى رحمة الله، التي يجب أن يقرأها وراء تلك الأحداث.

وإذا كانت هذه رحمة الخضر التي آتاه الله إياها: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾، فما بالك برحمة الله تعالى!

قلبي برحمتكَ اللّٰهُمَّ ذو أنسِ ... في السِّرِّ والجهرِ والإصباحِ والغَلَسِ
وما تقلَّبتُ من نومي وفي سِنَتي ... إلا وذكرُكَ بينَ النَّفسِ والنَّفَسِ
لقد مننتَ على قلبي بمعرفةٍ ... بِأنَّكَ اللهُ ذُو الآلاءِ وَالْقُدُسِ[1]

* * * * *

(1) «ديوان الشافعي» (ص85).

أدعيةٌ موسويةٌ

لما كنت مسجونًا في سجن الحاير بالرياض قرأت لابن قتيبة كلامًا عن دعاء ينسبه إلى موسى -عليه السلام-، يقول: «اللَّهُمَّ لك الحمد، وأنت المستعان، وعليك التكلان، وإليك المشتكى، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[1].

وهذا الدعاء كان له معي سر، فعندما أقرؤه وأنا في ضيق أو كرب، أو شدة أشعر بقرب الله - سبحانه وتعالى- فتعلمت من موسى الدعاء الذي يكون خاشعًا وحاضرًا، وواثقًا بأن الله يعلم ما تقول حتى قبل أن تنطق به، وأن الله -سبحانه وتعالى- يجيبه أو يعطيك ما هو أفضل وأكمل منه مما هو في الغيب. وقصة موسى مليئة بالأدعية فقد كان كثير اللجوء لله تعالى، رصدت بعضًا منها في التالي.

(1) يروى هذا مرفوعاً من حديث ابن مسعود رضي الله عنه؛ أخرجه البيهقي في «الدعوات الكبير» (264)، وقال: «تفرد به عبد الله بن نافع هذا وليس بالقوي».

الدعاء الأول:

موسى شخصية ملهَمة ومعلَّمة حتى قبل النبوة، ففي العاصمة "مَمْفِيس"، أو "مَنْف" القريبة من قرية البدرشين بالجيزة، وفي منطقة "سقارة"، يخرج موسى فيقتل القبطي، ويشعر بالخطأ فيدعو ويقول: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، علم أن الخطأ ليس عصيًّا على رحمة الله ومغفرته، فندم وأسِف وتاب وتألّه لله بهذا الدعاء: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾، قال الله - سبحانه وتعالى-: ﴿فَغَفَرَ لَهُ ۚ﴾، الفاء فاء التعقيب يعني استجاب الله دعاءه فورًا وغفر له.

وقد يكون علِم بالغفران من خلال الراحة التي وجدها في نفسه، وبثقته بالله، وقد يكون لم يعلم، ولكن الله أخبرنا أنه غفر له، والأقرب أن موسى أدرك وعلِم، ولذلك قال: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾. وهذه كلمة ثانية أجد فيها معنى الدعاء.

الدعاء الثاني:

القتل أحدث تغييرًا في حياة موسى، فبسببه عزم على ألا يقف في صف ظالم أو مجرم، يقصد فرعون وولاة فرعون، تعهَّد بألا يكون في جانبهم: ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، وأنه سيكون في صف الضعيف والمسكين والمحتاج والفقير والمظلوم، وهذا وعدٌ من موسى، وفيه التماسٌ من الله سبحانه أن يساعده على ذلك.

وأكاد أجزم أنه في الليلة التي قال فيها هذا الدعاء لم يذهب إلى قصر فرعون كعادته ولم ينم فيه، ونام في بيت أمه أو في أي مكان آخر؛ لأنه أخذ على نفسه وعدًا مقطوعًا وموسى رجل جاد وحاد وصارم.

الدعاء الثالث:

ولما أُخبر بأن ﴿ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾، قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾؛ قام بالعمل الذي ينبغي أن يفعله، خرج خائفًا يترقب ويحسب خطواته، وترك المدينة، ونفّذ النصيحة فورًا، وفي الوقت ذاته استعان بالدعاء: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فحينما تكون خائفًا من ظالم قد يكون مدجَّجًا بأحدث التقنيات والقدرات والحراسة.. إلخ، فإنك تملك دعاء الله تعالى، ولاحظ أيضًا أنه لم يكن نبيًّا وقتها، ولما قابل الرجل الصالح في مدين قال له: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فالله -سبحانه وتعالى- حقَّق له ما دعا وما تمنى.

الدعاء الرابع:

ولما توجَّه تلقاء مدين بقرار مدروس استعان بالدعاء: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، دعاء الفقير المتضرع المحتاج، ليس عنده وقت للضياع والتيه، فهو مطلوب والمسافة بعيدة والخطر شديد، وقد حسبوا المسافة بين ممفيس ومدين فكانت حوالي (1400) كيلومتر، اجتازها موسى فيما يروى في نحو أربعين يومًا، وكان حافيًا كما قال بعضهم، وليس معه شيء، فلذلك دعا بأن يهديه الله الطريق المباشر، الذي لا يضيع فيه جهد ولا وقت، ولا يدركه فيه طلب، ولما دعا وصدق هداه الله تعالى إلى مركز مدينة مدين عند بئر الماء، ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾.

الدعاء الخامس:

وعند هذا الماء كان محروراً فأوى إلى الظل، ولم يكن معه شيء من

مقومات الحياة في مدينة لا يعرفها، قد يعرف لغتهم فقط ولا يعرف شيئًا غير ذلك، فهو بلا مأوى، ولا طعام، ولا أهل، فدعا وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، دعاءٌ مفرداتُه مختارة بعناية، وكانت ثمرتها عظيمة، فرزق الزوجة: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾، وعقد عمل لمدة عشر سنوات، ﴿عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾، والسكن والاستقرار، والأمن من القوم الظالمين؛ لأن هذه المنطقة لم تكن تحت سلطة الفراعنة: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

الدعاء السادس:

وبعد مدة العقد خرج موسى -عليه السلام- في الصحراء مع أهله، وتاه في الطريق في البرد القارس ووحشة الصحراء، ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾، هذا تمنٍّ وترجٍّ وهو يحمل معنى الدعاء، كان يتمنَّى فقط هاديًا يدله على طريق الرجوع إلى مصر، لكن ربه سبحانه كان يدَّخر له شيئًا أكبر وأعظم؛ جعله الله الوحيد من الأنبياء الذي كلمه كفاحًا وسمع اسمه مباشرة من الله -عز وجل- وجعله هاديًا لأمة كاملة من الناس، ومخرجًا لهم من الظلمات إلى النور: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾.

الدعاء السابع:

وبعد دعوته فرعون ورفضه الدعوة أيس موسى منه، فدعا عليه ومعه هارون: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ

يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾، قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾، حتى الدعاء على الظالم الذي يئس من هدايته، أجابه الله تعالى وطمس على أموالهم؛ فقد كان عندهم أموال نقدية إلى جانب التعامل بالمقايضة سلعةً بسلعة، ويظهر هذا في قصة يوسف: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾، فطُمس عليها وتحولت إلى ما يشبه الحجارة، ولم تعد نافعة للتعاطي والبيع والشراء، وكذلك مصير فرعون كان وفق ما دعا به موسى عليه الصلاة والسلام، شد الله على قلبه فلم يؤمن: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

لهذا أحببت موسى:

موسى قبل النبوة وبعد النبوة صاحب إيمان بالله، ويحب الله ويؤمن بالله، ويلجأ إلى الله تعالى في الشدائد، ولذلك أحببت موسى وتعرّفت إلى الله أكثر من خلال قصة موسى، وأحببت أكثر سور القرآن التي أطالت في قصة موسى مثل: سورة الأعراف وطه والقصص، وهي تقريبًا كلها في موسى، وعندما يقرأها الإنسان ويتخيل تفاصيل القصة يحس أنه يعيش في جو إيماني عظيم.

فموسى يعلمنا الدعاء ويعلمنا الصحبة مع الله: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ في السَّفَرِ»[1]، وهو في سفره؛ سواء في مصر أو في سيناء أو في مدين أو في رجوعه كان يشعر بصحبة الله -سبحانه وتعالى- له ويناديه ويناجيه، مناجاة المستغيث المنكسر المؤمن برحمته وقدرته، وفضله وعطائه - سبحانه وتعالى- لم يكن ليُخيِّب دعوة موسى أبدًا، ولا دعوة الصالحين والصادقين.

(1) جزء من حديث ابن عمر رضي الله عنه، عند مسلم (1342).

أَتَهزَأُ بِالدُعاءِ وَتَزدَريهِ ... وَما تَدري بِما صَنَعَ الدُعاءُ
سِهامُ اللَيلِ لا تُخطِي وَلَكِن ... لَها أَمَدٌ وَلِلأَمَدِ اِنقِضاءُ[1]

إجابةٌ مؤجَّلة:

مرة وحيدة لم يستجب الله تعالى طلب موسى، وهي حينما ذهب لميقات ربه وكلمه ربه فطمع بالرؤية، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ انظر إلى الطموح! فكان الجواب من الله -سبحانه وتعالى-: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾؛ يعني في الدنيا، ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾؛ انهار الجبل وتفتت، وموسى -عليه السلام- صُعق ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ استغفر، وقال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

موسى يعلمنا الطموح في الدعاء، وما تمنَّاه موسى ورجاه لم يحدث له في الدنيا، ولكنه سيحدث له في الآخرة، ولكل المؤمنين الذين ارتبطت قلوبهم بربهم، ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾.

مَصْرُ مُوْسَى عندَ انتماءٍ وموسى ... مصرُ إن كانَ نسبةٌ وانتماءُ
فيهِ فخرُها المؤيَّدُ مهمَا ... هُزَّ بالسَّيِّدِ الكَلِيمِ اللِّواءُ[2]

* * * * *

(1) «ديوان الشافعي» (ص48).

(2) «الشوقيات» (12/1).

المصادر والمراجع

- «الشوقيات» (٢/٦٤-٦٥).
- «الشوقيات» (١/١٦).
- «ديوان هاشم الرفاعي- المجموعة الكاملة» (ص٣٥٩).
- انظر: «ديوان أبي نواس» (ص٣٦٢).
- «الشوقيات» (١/١٢).
- ينظر: «جمهرة أشعار العرب» (ص٢٩٥)، و«شرح المعلقات السبع» للزوزني (ص٢٣٤).
- ينظر: «ديوان امرئ القيس» (ص١٦١).
- ينظر: «الحيوان» (٦/٤٠٠)، و«التذكرة الحمدونية» (٩/٢٠٠).
- ينظر: «الوساطة بين المتنبي وخصومه» (ص٣٤٥)، و«شرح معاني شعر المتنبي» (١/١٩٥).
- «ديوان الأعشى» (ص٢٢٣).
- ينظر: «شرح نهج البلاغة» (١٧/١١٦)، و«شرح لامية العجم» (ص١٥٨).
- ينظر: «عيون الأخبار» (٣/٤)، و«شرح أبيات سيبويه» للسيرافي (١/٨٨)، و«المنتحل» (ص٢١٨).
- ينظر: «أعلام مالقة» (ص٩٧)، و«المعجب في تلخيص أخبار المغرب» (ص١٦٣).
- «الشوقيات» (١/٣).
- ينظر: «ديوان الحماسة» (ص١٢٢-١٢٣)، و«عيون الأخبار» (١/٣٤١)، و«الكامل» للمبرد (٢/٧٨).
- ينظر: «الشعر والشعراء» (٢/٨٠٦)، و«أخبار النساء» (ص١٤٧)، و«الدر الفريد» (٢/١٤٥).
- «الأعمال الشعرية الكاملة» لمحمد مهدي الجواهري (٢/٤٣-٤٨).
- «ديوان أبي العتاهية» (ص٣١٧).
- ينظر: «المنتحل» (ص١٩٧)، و«ربيع الأبرار» (٤/٣٤٣)، و«معجم الأدباء» (٦/٢٧٢٤).
- «شرح ديوان أبي تمام» للتبريزي (١/٣٤٠).
- «الأعمال الشعرية الكاملة» (ص١٩٤-١٩٥).
- «ديوان الشافعي» (ص٨٥).
- «ديوان الشافعي» (ص٤٨).
- «الشوقيات» (١/١٢).

فهرس الموضوعات

مقدمة 3

تابوتٌ في مَمْفِيس 7

إسرائيل في مصر 9

الدخول الأول: 9

ميثاق بني إسرائيل: 11

خطابٌ واحدٌ لأجيالٍ متعاقبة: 11

اذبحوا بقرةً: 12

والسؤال المثار هو: لماذا تهرَّب بنو إسرائيل من ذبح البقرة؟ 14

أنانيةُ شعبٍ 15

الأنانية الدينية 15

ثقافة غلَّابة: 16

أيقونة الماء: 18

بين عُمَر والنيل: 19

الفرعونية 21

فرعونية لا فرعون: 21

فرعون موسى: 22

إستراتيجية فرعون مع موسى: 24

عبدٌ مأمورٌ 27

سيكولوجية الطاعة: 27

الجزاء: 30

آلام الميلاد 33

آيةٌ مدهشةٌ: 33

رؤيا مؤرِّقة: 34

الأُمُّ واليَمُّ: 35

قلبٌ فارغٌ: 36

لهفةُ مريم: 37
رضيعٌ في القصر: 37
في القَصر 39
في ظل فرعون: 39
بيئةٌ سويةٌ: 41
نبوءة المخلِّص: 42
السَّيلُ من قطرةٍ: 43
وراثة بني إسرائيل: 45
بناء الذات قبل بناء الحضارات: 46
حادي الأمل: 48
تَشْريقةُ النُّبُوَّة 49
مطارد شهم 51
عمل المرأة: 52
جزاء الشَّهامة: 53
الحِجَجُ الثَّماني: 56
كيف أتكيَّف؟ 57
رجلٌ في كلِّ الحالات: 58
ركُوبُ الأطباق: 60
آنَسْتُ نَارًا 63
رحلة العودة: 64
وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ 69
اللقاء الأول: 70
اللقاء الثاني: 71
وقد كلَّف الله موسى بشيئين: 72
على قدَرٍ: 73
هَارُون أخي 75
ابن أمِّ: 76

هي أشياءُ لا تُشترى: 76
من فوق الأنهارِ إلى باطنها 81
أمامَ الطَّاغية 83
المواجهة: 83
حُرِّيَّةُ بني إسرائيل: 87
تسعُ آياتٍ 89
غَدْرُ فرعون: 90
أفلا يتدبرون!: 92
يَوْمُ الزِّينَةِ 95
الأسحار شتَّى: 99
سِحْرُ الإعلام: 99
هديَّة السَّحرة: 100
رجلٌ يسعى 103
رجل يكتم إيمانه: 103
رجلان لا رجل: 106
مؤمنة القصر: 107
ماشطةٌ مؤمنةٌ: 108
دورٌ لك: 110
تَشْريقةُ الأهوالِ 111
الخروج الكبير 113
وقائع الخروج: 113
استفزاز فرعون: 116
بين هجرة وهجرة: 117
حديثُ التِّيه 119
تيهٌ قدَريٌّ أم شرعيٌّ: 120
حاجةُ من تاهَ لا تنقضي: 121
التيه الأعظم: 123
الدَّولةُ العميقةُ: 125

عِجلٌ ذهبيٌّ: 126
سامريُّ العصرِ: 127
قَارُون 129
تبخترُ هالكٍ: 130
العِجْل الذَّهبي 133
لا مساس السَّامريّ: 135
قتلُ عَبَدة العِجل: 137
الأرض المقدسة 139
دخول الأرض المباركة: 140
بَشَرِيَّةُ موسى 145
التِّلقائية 147
نقاط ضعفي 153
كيف تعرفها؟ 153
لا ينطلق: 154
عَجِلْتُ إليك: 157
الغضب المقدَّس 161
علاج الغضب: 161
الغضبُ الرساليُّ: 164
كظم الغيظ: 165
الغضب المقدَّس: 166
إِنِّي أَخَافُ 167
الخوف من شِيَم النفوس: 167
فوبيا الخوف: 167
مخاوف موسى: 168
الخوفُ المرذول: 170
في موكبِ الأنبياءِ 171
صُحبةُ محمدٍ ﷺ 173

بين نبيين.. شبَهٌ واختلافٌ: 173
بقيَّة قوم موسى: 176
ومن مقاصد ذكر قصة موسى أمران: 176
أيهما أفضل: 178
صُحبةَ يوسف 181
اختلاف بيئة الدعوة: 182
اختلاف الصفات الشخصية: 183
استراتيجية الخَضِر: 184
أسرار الخَضر 187
إلى مجمع البحرين: 187
أخرقتها؟! 189
أقتلتها؟! 190
دون أجرٍ؟! 191
جلاءُ الخَفَاء: 191
أدعيةٌ موسويةٌ 195
الدعاء الأول: 196
الدعاء الثاني: 196
الدعاء الثالث: 197
الدعاء الرابع: 197
الدعاء الخامس: 197
الدعاء السادس: 198
الدعاء السابع: 198
لهذا أحببت موسى: 199
إجابةٌ مؤجَّلة: 200
المصادر والمراجع 201
فهرس الموضوعات 203

تم بحمد الله

علمني موسى

سلمان العودة

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ كل شيء محسوب في قصة موسى؛ ميلاد موسى، وزنه في الطفولة، المادة التي صنع منها التابوت، مستوى المد والجزر في البحر آنذاك، مستوى اندفاع الريح، وقت خروج امرأة فرعون ووصيفاتها للفرجة أو للسباحة، وقت مجيء فرعون، نظرة امرأة فرعون...، أدق التفاصيل محسوبة، وينبغي أن ندرك أن الأشياء تتكون شيئًا فشيئًا كبناء يتكامل على قدرٍ،﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾، في تلك الليلة كان الوقت، الجو، الظلام، البرد، حال موسى، وضع زوجته، المخاض، فقدان الطريق، كل شيء مقدر.

ومن خلال قراءة قصة موسى أصبح عندي يقظة للأحداث التي تقع أمامي، ولا أنظر إليها على أنها خاضعة لفعل الناس فقط، فأقول الناس قرروا كذا، وأرادوا كذا، سواء كانوا حكومات، أو جماعات، أو أحزابًا، أو أفرادا، خاصة أو عامة، أو عدوًا أو صديقًا، هذا كله يجب ألا يجعلك تغفل عن القدر الكامن في كل شيء،﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ﴾.

978-605-74686-8-0

9 786057 468680

وسم
للنشر والتوزيع

+90 551 163 82 25
wasmbookstore.com
wasm.bookstore@gmail.com